گولستان و الليل

حسن سليڤاني

الكتاب : گولستان و الليل (رواية)
المؤلف : حسن سليفاني
الطبعة الخامسة : القاهرة ٢٠١١
رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٩٤٩٠
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 057 - 7

الناشر
شمس للنشر والتوزيع
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net

لوحة الغلاف للفنان سردار كيستيي
تصميم الغلاف : إسلام الشماع

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

گولستان و الیل

روایة کردیة قصیرة

حسن سلیڤاني

شمس
للنشر والتوزيع

- أحقًا ستأتين..

- ألا تصدقين؟

- ....!

- وحقُّ عينيكِ سآتي.. لكن ربَّما سأتأخر قليلاً..

- لا يهم مهما تأخرت، لكن تعال..

- يبدو أنكِ مشتاقةٌ إليَّ.

- مشتاقة فقط؟ الشوق كلمة بلا روح، أنا مجنونة لرؤيتك.

* * *

الليلة ستكتمل سنتنا الخامسة..

هو، هو، لم يتغير، لم استطع أنْ أغيِّر كثيرًا مِنْ طِبَاعِهِ.. نعم.. نعم إنَّه يُحِبُّني وأنا متأكدة من حبِّهِ لي، ولكن على طريقته الهادئة الصامتة.. لا أتذكَّر الآن أنه قد قال لي ذات مرة:

- أحبك.

لكنه حينما يصفف شعري بأنامله بتلك الرقة والحب، حينها يغزو الفرح وجهي من كل الجهات، وابتسامة بوسع الكون ترتسم على شفتيَّ، وأحس بطعم السعادة.. عندئذ أدرك كم يحبني، وكم أن حركاته أجمل من كلمات الحب التي يدفنها في أعماق صدره. يتجسد حبه لي أكثر حينما يغرق بلا صوت في ليل عيوني ولا يحسُّ بشيء آخر حوله، إلا حينما أقول له بلطف:

- ألا يكفي؟

لكنه يدرك أنني أود أن يظل ينظر إليَّ، لهذا يهز رأسه ويطبق جفنيه، ثم يرفع حاجبيه، ومن الأعماق يسبح في بحر من الضحك..

لا أعرف لماذا لا يقول لي أنتِ جميلة أو أنيقة؟ صديقاتي دومًا يقلن ليَ، أزواجنا لا يكفون عن مدحنا وتبيان ملامح جمالنا.. لكنني لا أصدِّقُ أحاديثهُنَّ.. أغلب النساء كاذبات، حقًا كنت أفرح عندما كان يُبدي ملاحظاته حول فساتيني التي أفصلُّها وأخِيطُها في البيت، لا ينسى أنْ يقول لي:

- يا للجمال والأناقة! كم تليق بقدك، فلتسلمي لي يا حلوتي.. ولتلبسي ما شئتِ من هذه الفساتين.

ليته يقول لي ولو مرةً:

- أنت جميلة ورائعة.. أو حسناء أو وديعة!.

ألا يدرك الرجال إننا ظمِئاتٌ جدًا لمثل هذه الكلمات؟، أووه.. لا.. لا.. دعه لا يقلها أبدًا.. لكن ليأتِ الليلة لأتمكن من رؤيته، غير هذا لا أريد شيئًا.

- لا يزال الوقت مبكرًا؟

- حقًا، الوقت مبكر..

- هو بنفسه قال قد أتأخر...

- فليتأخر.. أنا والليل والذاكرة وكوني المتآكل سنكون في انتظاره.

* * *

أحيانا يُعَكِّرُ صَفْوَ نفسه بسبب ملابسي ويعاتبني:

- هي ي ي.. هي ي ي، أهذه أنت التي تقول عنك صديقاتك بمباهاة لا امرأة مثلك تختار ملابسها بأناقة وذوق؟ ترتدين هذه السترة على هذه التنورة؟! أوه.. يا للنشاز والتضاد، هيا غيِّري ثيابك قبل أنْ يراك أحدٌ ما.

هذه بدلته الجوزية التي اشتريناها معًا، وهذا قميصه العسلي الفاتح، يا لرائحتهما الطيبة، إنها نفس رائحته، كم سيبدو أنيقًا بهذه الربطة المقلمة، هيا تعال بسرعة، بالله عليك تعال، أنا بانتظارك، كلنا بانتظارك، أنا وطفليك وشجرة التين وكتبك وملابسك المشتاقة لك مثلي، أتَعْرِفُ أنَّ نار الشوق أشد حرارة من نار جهنم وقد أحرقت قلبي؟! تعال بالله عليك تعال، ما عاد في رأسي ذرة عقل، يا الله تعال!

* * *

كنتُ أنصت إليهِ بآذانٍ صاغية حينما كان يتحدث لي عن عمله، أو عن أشياء تحدث في الدائرة، ما تزال الكثير من أحاديثه في ذاكرتي:

(كلَّ يومٍ تتأخرُ ليلى عن الدوام، لا أحد منا يسألها لماذا؟ لأنها مثل كل مرة ستقول ليست هناك مشكلة أعقد من مشكلة النقل والسيارات، ولا أظنُّ أنَّ هذه المشكلة ستُحَلُّ قريبًا، لا.. لا مُطلقًا لنْ تُحَل.. وربما ستزداد سوءًا.

سهام.. تلك التي نطلق عليها -عامود كهرباء- لطولها الفارع وقامتها الرفيعة، كل يوم مثل عروس تُلمِّعُ وجهها بالأصباغ والبودرات المختلفة، ساقاها ببياض الثلج، لا وجود للشعر فيهما قط، سنة أخرى وتدخل في عامها الثلاثين وإلى الآن لمْ يَطْرُقْ أحدٌ باب قلبها، ليطلب يدها، حينما أقول لها:

- ألا يكفي يا سهام؟

تبتسم ابتسامة باردة، مفتعلة، مثل ابتسامة المذيعات وتقول:

- ماذا افعل إذا كان الشباب ينظرون إليَّ من خلال الميكروسكوب، ويزنون حركاتي بمئات الموازين؟

الحياة في نظر سهام أناقة وجمال وموديلات جديدة وقصة شعر أوربية و.. ولي لي وه سو..

سردار.. الذي ودَّع قريته قبل اثنتي عشرة سنة واستقر في هذه المدينة، لا يزال يبحث له ولأطفاله عن مسكن أفضل للإيجار.. من الفرح يظل فمه مفتوحًا حينما يقول له أحد ما إن في الحي الفلاني مسكن للإيجار، لكنه في اليوم التالي يصرخ ملئ حنجرته:

- يا للهول من يصدق أن خرابة بغرفتين وبلا حمام بـــ "١١٠ دينار"، أيها الناس أتعرفون كم أقبض؟ اثنتا عشرة سنة من الخدمة وأنا لا اقبض سوى مائة وثمانية وثلاثين دينارًا وبضعة فلوس، بالله عليكم أهذه حياة أعيشها؟ تبًا لحياة البؤس والتجوال والفقر الباسم لنا في كل الأزقة.. بالله عليكم أهذه حياة؟

يا لكبرياء رئيس هيئتنا حمود.. لا أحد من موظفي دائرتنا يتكبر مثله أبدًا، لا سيما حينما نذهب بزيارة عمل إلى دائرة أخرى، يذهب إلى المدير مباشرة، متباهيًا بحقيبته الدبلوماسية، وقبل أن يريه الأمر الإداري، بغرور واضح، وظلٍّ مقيت يقول:

- أنا حمود حامد العلي، رئيس الهيئة – أقصد هيئة قطاع وزارة التجارة.. وسنبقى في دائرتكم لفترة تتراوح بين ٢٠-٣٠ يومًا، حتى ننجز كل أعمالنا هنا، أريدك أن تُهيئ لنا غرفة مريحة نظيفة وعلى ذوقك الخاص، وأن تكون مزودة بهاتف، لأنك تعرف إن عملي كثير وإنني مسؤول عن عدة دوائر تابعة لوزارتكم ثم.. ثم التليفون ضروري لي.. و..، وكل ما يطلبه أعضاء الهيئة من ناحية الحسابات والسجلات والجداول المالية يجب أن يلبى بدون تأخير، فالتأخير تدمير، وقتنا كما تعلم ثمين جدًا ولا يجب أن تمر دقيقة واحدة دون عمل، أليس كذلك؟ ثم الوقت من ذهب، ها ها ها..

لا أحد يحبه، وكل من عمل معه لم يُكمل ستة أشهر، إلا وطلب النقل إلى هيئة أخرى، لكني قضيت معه سنة ونيفا بشق الأنفس، إنه سيء في تعامله، حججه كثيرة للكلام، وعصبي جدًا.. جاف ومتعجرف، رجل كأنه لم ير نور الحياة.. زميلتنا وجدان تقول:

- بالكاد نمضي وقت الدوام مع ثقيل الظل هذا، فليكن الله في عون زوجته، ترى كيف حالها بين يدي هذا الرجل وأنفه الأفطس؟

* * *

هو يقول:

- الحياة شجرة خضراء، يجب أن نبتسم لها دومًا، وأن نتأملها بعين الأمل، حتى إذا ما جاءها الخريف ليرحل عنها بسرعة ولتخضَّر ثانية.

يُحب أصدقاءه، علاقته جيدة مع أهل الحي، لا سيما مع جيراننا، أبدًا لا يغضب من جارتنا المشاكسة الباحثة عن المشاكل، أم جبار. لا اعلم لماذا وبلا سبب، كثيرًا ما تحاول أن تدس أنفها في قضايانا الخاصة.. لكنه يقول:

- اتركوا هذه المرأة لحالها، ليكن بلاؤها لها، لا تقربوها، لتتعفن بلسانها الزفر..

حينها أقول له:

-إنها تحسدنا..

يقول لي:

- تحسدنا على ماذا؟ أتحسدنا على بيتنا الدائري الكبير، المليء بالأشجار الخضراء، أم تحسدنا على بساتيننا التي ليس لها حدود والعامرة بكل أنواع الفواكه والخيرات؟

أريد أن أقول له إنها تحسدنا على حبنا وسعادة قلبينا، لكنني أتراجع وابتلع تلك الكلمات وأودعها في زاوية من زوايا قلبي وأسدل عليها ستارًا وأقول:

- يا رب احفظنا لبعضنا.

يكاد أن يجن ويفقد وعيه عند رؤية أزهار الربيع، وطيران الفراشات الزاهية بألوانها اللامتناهية بحب وحرية.. قليلون مثله مولعون بعشق الطبيعة، حينما ذهبنا إلى مصيف صلاح الدين قبل سنتين، بدعوة من صديقه "هيمن" كنت أحس أن روحًا جديدة قد حلَّت في جسده وكأنه لم يكن يتجول بين أشجار وغابات صلاح الدين بل كأنه يتنزه في رياض الجنة.. تملكتني الدهشة حينما قال لي فجأة:

- أحقًا للجبل قلب؟

كأن عشرة رجال معًا وضعوا أيديهم تحت ذقني ورفعوا رأسي نحو جبل "سفين" الذي كان قد رفع رأسه ليطاول عنان السماء، وبثقة وجرأة ينادي عين الشمس:

- لابدَّ أن أقبلكِ، إنْ لم يكن اليوم فغدًا، إنْ لم يكن غدًا فبعد غد..

صار لجبل سفين وصخوره وسفوحه وأشجاره وطيوره فمٌ ولسان، وقال لي:

- إن لم يكن لي قلب كيف ينبت التين والورد والنرجس والسوسن بجواري وكيف تعقد هذه الرقصة البهية مع النسيم؟ كيف ستتدفق المياه والشلالات من بين ثنايا صخوري وتروي ظمأ الرعاة والمسافرين وتمنحهم قوة جديدة ليسيروا بقافلة حياتهم نحو السعادة!

ابتسامتي قبَّلت عينيه الصافيتين المتألقتين، وقلت له:

- أهناك أرحم وأوسع من قلب الجبل على وجه الأرض؟

- كيف ذلك يا امرأة؟

- يا امرأة.. كلمة جديدة لديك.. ممن أخذتها؟

- لا تهربي من السؤال.. كيف له قلب؟

- إذا لم تصدق، اسأل سفين نفسه، ليعطيك الجواب..

- لا لن أسأله، تعالي لنشرب "سفن آب" من ذلك الكشك الذي يطير فيه صوت ناصر رزازي "آهٍ كم أحبكِ".. أنا أعرف أنك متعبة، أليس كذلك؟

* * *

ما كان يمر يوم دون أن يقول لي:

- راعيهما جيدًا.. إياك أن تدعيهما يكثران من الذهاب إلى الباب أو الزقاق..

باهتمام بالغ كان يرعى طفليه.. يُنقص عشرين سنة من عمره ويصبح طفلاً مثلهم، يلعب معهم بلغتهم، كان يجعل من نفسه قطارًا، ويُركب طفليه على ظهره، وكان يصدر صوتًا مثل صوت القطار:

- جك.. جك.. جك.. يالله يا أطفال تمسكوا بي جيدًا، القطار سينطلق.. هيا ودِّعا والدتكما.. جك جك جك جك.

كان الطفلان يرفعان يديهما وبصوتٍ ملؤه البراءة يقولان:

- هيا.. هيا يا أبي، سق بسرعة، يالله.. يالله يا أبي.

في خضم الفرح والضحك والسعادة التي حولنا، كنت أرى إن الحياة لا تسع فرحتي وأحس بأن الدنيا صغيرة، صغيرة مثل غرفتنا، ولا أحد غيرنا وطفلينا فيها، حتى أمي التي ولدتني ومن حليب ثديها كبرت، يوما بعد آخر كنت أنساها، كيف استطاع أن يأسر قلبي هكذا بالمرة، ليتني كنت أعرف لماذا أحبه بهذا القدر المجنون، ليتني.. ليتني أعرف! لكن الذي يقلقني ويفقدني عقلي، هو حبه المطلق للكتب والمجلات والصحف واهتمامه بهما، ست علب كارتونية مليئات حتى الرأس بالكتب تحت سرير النوم، حتى

أسفل الكنتور أيضًا لم ينجُ من كتبه المتراصة بود فوق بعضها البعض..

أحيانًا.. لا بل معظم الأحيان كنت أتضايق من وجود الكتب، حتى إني كنت أود من صميم قلبي أن تغزوها الفئران وتمزقها بلا رحمة، أو أن يمزقها طفلاه.. ولكن أنَّى يحدث هذا وقد عوَّد طفليه من الآن على حب الكتب، لاسيما تلك المليئة برسومات الكارتون والأطفال والأشجار الجميلة، بين الحين والحين كان يجلب لهم المجلات الملونة ويقرأ الحكايات لهم بصبر شاسع كالسماء.. بصراحة كانت هذه الكتب كثيرًا ما تغدوا حسناء ذات ثمانية عشر ربيعًا تشاركني في حبهِ، ترتدي فستانًا زاهيًا ليكسب وجهها جمالاً أخاذًا، وهو ما كان يمل محادثتها ولا يبعد عينيه لحظة عنها حتى ساعات متأخرة من الليل.. كان يُحِبُ القراءة لدرجة كنت أخشى أن يضعف نظره بسرعة، حقًا كنتُ أفرح حينما كان والده المتعبد في محراب الله يقول له:

- ما كتبُ الشيطان هذه التي تقرؤها، ألم تُنه دراستك؟ اقرأ القرآن يا ولدي، هذه الكتب لا تفيدك.

- بقراءة الكتب يا أبي يصبح الإنسان أكثر إنسانية.

- وكيف ذلك؟

- يتفتح العقل أكثر، يتعلم المستجدات الحديثة، يكتسب المعرفة، يحترم نفسه والآخرين أكثر.

- أحيانًا اقرأ القرآن أيضًا يا ولدي فأنا أريد مصلحتك.

- حسنًا يا أبي.

حينما كان يُدرك بأن صبري يكاد ينفد وإنني على وشك أن أنفجر غضبًا في وجهه كان يخاطبني بود:

- هذا الكاتب يقول كذا وكذا..

كان يشرح لي بعضًا من آرائه، ومن ثم يقول لي:

- أمعقول رأيه؟

- هو أيضًا مجنونٌ مثلك.

- لا تسخري من كل شيء، حقًا ماذا تقولين؟

كان يريد أن يضمني إلى جانبه، ويُطفئ بهدوء نار قلبي المستعرة بكلماته الرقيقة الدافئة.. أحيانًا كنتُ أبدي رأيي، وأحيانًا كنتُ أفضّلُ الصمت، وأخرى كنت أفضل طبع قبلة على الحفرة الجميلة في أسفل ذقنه التي أحبها وأقول له:

- طابت ليلتك يا حبيبي، ما عادت عيناي تقاومان إغراء النوم.

أحيانًا كان يترك الكتاب الذي بين يديه ويضعهُ على الكومودينو الصغير القريب منه ويقول:

- ماذا تقولين، لو تغسلين وجهك الصبيح بقليل من الماء، وتعدين لي شايًا حلوًا طيبًا يا نجمة هذه الليلة المضيئة، يا حبيبة القلب؟

حينما كان يتكلم بتلك الرقة والحب ويقول لي يا ربيعي يا روحي؛ كانت خيوط النوم تترك عينيَّ واحدةً تلوَ الأخرى وتهرب، ولا تبقى في تلك الأطراف بتاتًا وكنت أجهل إلى أي عالم تطير، حينها كنت على استعداد لأعد من كل أنهار العالم شايًا ولأقدمه لكل البشر في العالم بقلب آمن هادئ.. يا للحب!

* * *

آه كم أحبك.. وكم أنا مشتاقة إليك وإلى كلماتك، تعال.. تعال ها أنا والليل والأحلام والذكريات في انتظارك، لا تقل لا يزال الوقت مبكرًا، وإن قافلة الليل لم تنتصف بعد، والله أنا مجنونة لرؤيتك، ماذا أقول؟ أي شيء أقول؟ أأقول ثانية أحبك، أنا مشتاقة إليك، الليالي الطوال تلتهمني، أحترق مثل حطب مواقد الشتاء في كردستان، أأقول لك إنني بدونك فاقدة للوعي والتفكير، ولا اعرف أين الطريق، هيا تعال.. تعال وازرع هذه الشفاه الذابلة بالآمال والابتسامات، ألا تدرك أنني بدونك بلا حياة؟ تتقاسمني الهموم والأحزان، حقًا المرأة بدون رَجُلها شجرة مكسورة، ضعيفة، مهزومة، لا تستطيع الصمود أمام عواصف الحياة، تعال.. يكفي..

ألم تكن أنت القائل "لن أبتعدَ عنك أبدًا"؟ تعال.. تعال بالله لم أعد أحتمل الانتظار، ليل نهار يسأل طفلاك عنك، يقولان ويرددان:

- أين أبونا يا أماه؟.

- لماذا لا يأتي إلى البيت؟.

- أنتِ تكذبين علينا، حتى ننام كل ليلة، أين.. أين أبونا؟.

- سيأتي ويجلب لنا الحلوى! أليسَ كذلك يا أماه؟.

الكبير يفهم، يدرك الأمور، لا يقتنع بأقوالي بسرعة، قبل العيد بأسبوع قلتُ له:

- لنذهب ونشتري لك ملابس العيد يا ولدي.

رفع رأسه إلى حيث صورتك المعلقة في الجدار، وبصوت ممزوج بالأسى والبكاء قال:

- لا أريد ملابسًا، أريد أبي..

امتلأ حلقه بالبكاء وبكى بحرقه، لم أستطع أن أهدئه، احتضنته، وتوحدت دموعنا معًا وكنت اسمع صوتك يأتي من أعماق بعيدة، سحيقة، يأتي بصعوبة: "واحسرتاه لما حلَ بكم، ليخرب الله بيت الذي أبعدني هكذا عنكم". أهذا الصوت الحزين المفعم بالآهات صوتك؟ من أين كان يأتي؟ أمِن أعماق البحر؟ أم من نهايات نفق عميق؟ أو من ثنيات الجبل الأبيض؟ أم من متاهات صحراء العرب الحارقة؟ ليتني اعلم، من أين كان يأتي صوتك؟.

الحمد لله إنهما يشعران بالراحة عند جدتهم وأكثر الأحيان هما عندها، ويسعدان بحكاياتها التي ترويها لهما، أتعلم لو لم تكن أمك، ما كنت اعلم كيف سأداري الطفلين، وأتخلص من أسئلتهم التي لا تنتهي.. والدتك تحبهما جدًا وتقول:

- إنهما يحملان نفس عيون وملامح ابني.

- وأنا، إنهما قطعتان مني! ألا ترين كم يشبهانني؟

- يقتربان أكثر من سيماء أبيهم.

- وهل أبوهم هكذا متورد الخدين؟ ذلك الأسمر ذي الشارب الكثيف.

- أهناك أحلى من ولدي يا بنت! إنه السكر بعينه.

أتدري يا خفيف الظل، قبل بضع ليالٍ كان "شينوار" يحكي لي قصة الضفدعة بلسان سلس، متكسر:

- هيا أخرجي أيتها الضفدعة من حجرك، هيا كي أقبل أنفك.

قلت له:

- من روى لك هذه القصة؟.

هز رأسه قرب المرآة الكبيرة، ونظر إلى نفسه من خلالها، وقال لي:

- جدتي.. جدتي.

- أتعرف قصصًا أخرى؟

- نعم قصة الذئب والثعلب أيضًا.

- أحسنت، إذن أصغ جيدًا لجدتك حينما تروي لك القصص، لتتقنها وترويها ثانية لي يا شينوار.

- وهل ستشترين لي الكاستر؟.

- يا حبيب القلب كيف لا؟ أنت تتدلل.

والآن هما عند جدتهما، صحيح أن الوقت متأخر، لكنني لا أظنهما قد ناما، ربما يرهقان الآن جدهما وجدتهما بأسئلتهما البريئة.. جدهما دومًا ينظر إليهما بصمت حنون ويحتضنهما، ويتفطر قلبه حينما يراهما.. قبل أيام دخل غرفتي، نهضتُ إجلالاً له، وكان في يدي كتاب:

- أنتِ أيضًا مثله، أصبت بداء القراءة.

- استفيد من وقتي بالقراءة.

- بالله عليك اهتمي جديًا بحفيديَّ.

- وهل لي غيرهما.. لولاهما لكنت قد متُّ منذ زمن.

كم هو إنسان رائع أباك، يا لسعةِ صدره وهدوئه، وكأنه ليس من هذا الزمان، لا يتدَّخل في شؤون أحد، لا يُزعج أحدًا، لا يتكلم كثيرًا، أعتقد أن في قلبه أسرارًا عميقةً، لكن متى سينفتح ذلك القلب؟.

* * *

في الذكرى السنوية الأولى لزواجنا، أعددتُ حفلة صغيرة، وحينما طلبتُ منه أن يقطع قطعة الكيك التي عملتها بيدي في البيت لنوزعها على الحضور، امتعض قليلاً، بانت عليه مسحة من الحزن المخفي، بعد أن ودَّعنا أصدقاءنا وبقينا لوحدنا، وقبل أن أعاتبه سبقني في الكلام وقال لي:

- لا أحب هذه الحفلات الباهتة والمقيتة، لا أريدك أن تكرري هذه الحادثة ثانية، لو كنا وحدنا أنا وأنتِ، ألم يكن أفضل وأطيب؟.

أكلني بعينيه وبرقة قال:

- كل سنة وأنت بخير وسلامة ونرجس.

لم أزعل منه وقرصتهُ من فخذه وبفمٍ باسم، وفرح مجنون قلت له:

- سامحني هذه المرة، وحق شعرك المعقوف لو كنت أعرف أنك تمقت هذه الأمور ما كنت فعلتها، هيا اضحك، اضحك يالله، لا أريد أن أمنح الليلة الفرصة لأي شيء يعكر صفونا ويدخل إلى غرفتنا.

حينها ابتسم من الأعماق وتورد وجهه وأشرقت عيناه وبطرف عينهِ اليسرى أشار لي، كان يريد قبلة، هذه كانت إشارته لذلك، مدَّ لي يديه على طولهما وكان قلبي يسمع قلبه ينادي:

"هيا اقبلي يا حبيبتي.. يا حمامة بيتي.. هيا أسرعي، تعالي.."

سبقني الشوق إليه واحتميت بصدره ووضعت رأسي على كتفه الأيسر، وأحاطت يداي برقبته، وأغمضت عينيَّ بشدة ولم أرغب

في أن افتحهما، كنت أوَّدُ لو أن الحياة تتوقف حينها ولا تتحرك مطلقًا.. كم كنتُ اشعر بالأمان، حين كان يمرر باطن يديه بذلك الحنان والحب والرقة على ظهري، كانت ليلة سعيدة، ولن أنساها قط، لكني آمل أن تكون ليلتي هذه أجمل، أين أنت؟ تعال.. تعال.

* * *

كالآن أتذكر، كان يوم الاثنين، كنت أكوي قميصه، حينما عاد من الدوام وفي يده ظرف حلوى، رماه باتجاهي ونزع سترته ورماها على السرير:

- أتعرفين لمن هذه الحلوى؟.

- أوَ أشم قفا يدي؟

- فكري قليلاً وستحزرين.

- لِمَ لا تقول لي أنت؟

- هذه الحلوى هي لفرح شقيق وجدان.. الخميس عرسهم.

- على الخير والبركة.

- كل الخير والهناء، و.. ويوم الأربعاء هناك حفلة في بيتهم، وتريد وجدان أن نكون من بين الحضور، لكنك تعرفين أنا والحفلات لسنا على وئام ولن نذهب، ثم بعد أيام سأختار هدية لشقيقها وأهديها له بالمناسبة، هيا افتحي الظرف لنحلي حلقنا به.

وجدان.. وجدان.. هذا الاسم لا يغادر شفتيه، وجدان عملت كذا، وجدان قالت الشيء الفلاني، وجدان ذكية، وجدان ذات ذهن وذاكرة قوية، خفيفة الظل، حلوة المعشر، وجدان تحترمني كثيرًا وكذلك أنا، من أنتِ يا وجدان؟ ماذا تريدين منه؟ ماذا بينكما؟ بالله يا وجدان لا يمكنني قط أن أنسى كلماته: "أرأيتِ أنهارًا زرقاء صغيرة تنبع من قمر وردي؟". لم أكن اعرف أنه يعني بذلك جمال وجدان، حتى هو نفسه قال لي ذات مرة:

- زهرة دائرتنا وأجمل فتاة فيها هي وجدان، وكل البنات يحسدونها على جمال وجهها الذي يخجل منه القمر.

يجب أن أرى وجدان هذه، أخشى أن يكون على علاقة حب بها، وإلا ما الذي يدفعه إلى أن يذكر اسمها كثيرًا في حضوري، لا.. لا.. كلامه عنها لا يأتي من فراغ! لابد أن يكون هناك شيء ما، لِمَ هو دومًا يذكر اسمها؟ هو نفسه يقول: "في قلب كل رجل بقعة سوداء.. ولا أحد ملاك أبدًا".

من لا يقول إن حبه لوجدان هو تلك النقطة السوداء في أعماقه؟ والله لو أن السماء تنطبق على الأرض يجب أن نذهب معًا إلى بيت وجدان لأراها، الأفضل أن أكون يقظة لهذا الجانب، الرجال لا يؤتمنون، هم ليسوا أهلاً للثقة، لأضيق عليه الخناق! مضغت قطعة حلوى وناولته واحدة وبدلال امرأة قلتُ له:

- أرى إنه لمنَ العيب ألا نحضر حفلة شقيق وجدان!.

- لماذا؟.

- أليست أقرب صديقة إليك؟.

- بلى.

- أوَ ليست للصداقة حقوق؟.

- بلى.

- و.. والحقيقة هذه فرصة طيبة للتعارف أيضًا، ليكن قبولك الطلب من أجل خاطري، ها ماذا قلت؟ يا الله قل موافق!.

- ولأي سبب آخر؟.

- لا شيء أبدًا.

- حقًا!. لا شيء آخر!

- ألا تُصدق؟.

- فليكن يا رائعة العينين، أنا أيضًا أريدكما أن تتعارفا، وربما يموت الشك الذي يسكن قلبك، ويحل الهدوء محله، أوَ تظنين أني لا أحس بحركات الأفعى السوداء التي تسكن أعماقك منذ زمن.

- يا لك من..!

هكذا قلت له وخرجت لأصب لنا الغداء..

* * *

كان الوقت مساءً.. والظلام يرسل خيوطه السوداء أفواجًا، لكنها ما كانت تستطيع أن تجد لها موطئ قدم قرب زقاقهم ولاسيما أمام باب بيتهم المزدحم بالسيارات المتراصفة، من شدة الأضواء الملونة المحاطة بكل جوانب بيتهم المتألق والذي كان يبدو خياليًا لنا.

ما إن دخلنا الدار، حتى استقبلتنا فتاة بوجه مشرق دائري كتفاحة، هو مزيج من الثلج والدم، مزدانة بفستان أزرق فاتح قد سرق لونه من السماء الصافية، كان فستانها مزدانًا بورود بيضاء صغيرة.. بابتسامة استقبلتنا وكانت يداها تسافران في الهواء، من خلال حركتها كانت تقول أشياء لا أدركها، لكني متأكدة من إنه كان يعرف جيدًا ماذا تقول هي بحركاتها تلك دون أن تنطق بحرف واحد. هما يفهمان إشارات بعضهما البعض، مثلما نفهم جيدًا أنا وهو معنى كل حركة من حركاتنا الصامتة، قبل أن تصلنا قالت:

- على الرحب والسعة.. أهلاً بمقدمكما.. يا أهلاً.

مدت يدها اليمنى باتجاهي وبدون تردد قالت:

- أكيد هذه هي "گولستان" أليس كذلك؟

نظر إليَّ بفرح وقال لها:

- لا.. هذه گولستاني أنا.. وردة حياتي الباسمة.

- يا لحلاوة لسانه، لا تصدقيه يا وجدان، إنه نار..

- أوَ لا أعلم، إنه نار كبرى!.

- شكرًا.

ضحكنا ثلاثتنا وقالت هي:

- ليحفظ الله لك گولستانك.. الحق إنها زهرة حقيقية.

بصدق وحرارة قبلتني وقبلتني، وأحسستُ بأني أعرف هذه الفتاة منذ زمن بعيد وأن لي معها صداقة طويلة جدًا.. من النظرة الأولى دخلت إلى أعماقي وأحببتها وأحسست بالراحة قربها.. مع نفسي قلت:

"كان دلشاد على حق، حينما كان يقول لي، أرأيت أنهارًا زرقاء صغيرة تنبع من قمر وردي؟".

وجهها ثلج ودم.. يا لحلاوتها، حتى شرايين وجهها واضحة جدًا، ما شاء الله من حسنها ليحفظها الله ويطول في عمرها وليجعلها من نصيب رجل يقدرها ويعرف قيمتها..

- تعالي لأعرفك بصديقات الدائرة.

- تفضلي..

كان بيتهم واسعًا مريحًا مساحته أكثر من عشرة بيوت في محلتنا، والروائح العطرة تفوح من حديقتهم الكبيرة، التي فتحت قلبي أكثر لحب الحياة. ترى أسيكون لنا يومًا بيتٌ كهذا؟. بين ضحكاتهم وأحاديثهم جاء صوتها العذب:

- هذه ليلى.. وفاء.. سهام.. بشرى.. هدى.. منال.. وهذه هي گولستان زوجة زميلنا دلشاد..

- أهلاً وسهلاً.. أهلاً وسهلاً.. تشرفنا بمعرفتك..

- أهلاً بكم جميعًا، أنا سعيدة بمعرفتكم.

- وكذلك نحن.

- لماذا لا تزورينا مرة في الدائرة؟.

- أرجو المعذرة لِمَ أزوركم؟

- إنها على حق، وهل دائرتنا حديقة عامة؟.

- أم تريدونها أن ترى "شكولات" حامد؟.

- لا تذكرينا بهِ هنا وإلا سينقلب فرحنا إلى مأتم آخر.

- بالله عليك يا گولستان زورينا مرة.

- أنا أسيرة الدوام.

- أي دوام يُقيِّدك؟.

- المدرسة ودروس الأطفال فيها.

- رائع أن تكوني معلمة مدرسة.

البعض من تلك المجموعة كن ينظرن إليَّ خلسة ويتهامسن فيما بينهن، سحبتني وجدان من يدي، وقالت لهن:

- اتركوها.. ستقتلونها بالأسئلة.

أخذتني إلى غرفتها، تناولت مشطًا وبدأت بتسريح شعرها أمام المرآة وعيناها لا تملان النظر إلى وجهها، حينها قلت لها:

- دعي المشط جانبًا وكفاك وقوفًا أمام المرآة، تالله أنت وحدك مليكة هذا الحفل، كفاكِ أناقة ودلالاً، فالحلاوة تسيل منكِ.

- أحقًا ما تقولين؟.

- ألا تصدقين؟.

- آهٍ كم أحبك!.

- وهذا ما يردده قلبي الآن أيضًا.

كانت حديقتهم ملأى بالزهور والصبايا والشباب والدبكة مستمرة، وصوت المغني الشاب كان يخترق أذن الجيران والجدران:

إن كنت تحبيني حقًا

يا قمرية الوجه، يا جميلتي،

خضي القربة كي أتي

كان ضائعًا في خضم المدعوين، أحيانًا كانت تلتقي عينانا، كان يغمض لي عينًا دون خجل، بدون شعور كنت ابتسم له، ظهر لي أن علاقته جيدة بزميلاته في الدائرة، حيث كُنَّ يحطن به كالفراشات الطائرة بفرح واضح، لكنني لا أعرف أمِّن كل قلوبهن كن يضحكن ويبتسمن أم إنهن يخفين آلام قلوبهن تحت ستار هذه الابتسامات والضحكات الكاذبة المفتعلة.. عندما حانت الفرصة ورأيته لوحده، بابتسامة قلت له:

- هيا يا هارون الرشيد هذا يومك، ما كل هذه الأزهار التي تحيط بك يا رجل؟.

- لا تخشي شيئًا يا زهرة نيسان، فأنت وحدك حبيبة القلب وستبقين دومًا حبيبتي.

- أجل.. أجل، أقنعني بكلماتك الرقيقة هذه، أهذا أنت الذي لا تحب الحفلات!.

اقترب مني أكثر وبصوت حالم هامس كنسيم صباح أثقلته الثلج قال:

- إني أتحرق إلى شفتيك.. قبليني! لتكن إكرامًا لوالديكِ!.

هززت له رأسي وانفلتت ابتسامة من شفتي وهربت قائلة له:

- أنىَّ لك ذلك! أتريد أن تفضحنا؟ أجننت؟.

- بالله عليك يا گولستان..

- اصبر يا رجل، لم يبقَ إلا القليل وسنذهب إلى البيت، ولا يزال الليل طويلاً.

- سأكون في حرب مستمرة هذه الليلة..

- سنرى..

كان حريصًا جدًا على أن أبدو مرحة، منطلقة، فرحة، والحق كنت كذلك لأنه كان بجانبي، بداخلي، بداخل قلبي السعيد به، وماتت في تلك الليلة تلك الأفعى في قلبي وأحسستُ أن وردة بيضاء كجبين

وجدان حلَّت محله، وليلتها لم أحس بالتعب مطلقًا، بل أخذني النوم الهادئ إلى أحضان فجر جديد باسم لشعاع الشمس الذي كان يُقبِّل الأرض وأوراق الشجر، ويبتسم للعصافير.

* * *

كم حاولتُ أن أتحرر من ذلك الضحك، الضحك من الأعماق حينما رأيته بتلك البدلة الخاكية العريضة الطويلة التي يضيع فيها، مثل طفل يرتدي سروال أبيه، ازدادت حدة ضحكي حينما قال طفلنا شينوار بنية بيضاء:

- هذا "كروعي"، كروعي.. أبي كروعي.

حينما نظر إلى نفسه في المرآة ورأى هيئته، ضحك من منظره، والتقت أمواج ضحكنا معًا في سماء الغرفة الصغيرة التي تحتوينا، التفت إليَّ وقال:

- أما يكفي ضحكك يا ابنة الحلال! أولدتِ من الضحك؟

- إن لم اضحك اليوم، فمتى اضحك إذن.. إذا كنت رجلاً ستنظر إلى نفسك ثانية ولن تضحك؟.

- كفى.. كفى، والآن انظري إليه جيدًا لتعرفي كم ستأخذين من عرضه، وكم تقطعين من طوله، أريدك أن تجعليه يبدو ملائمًا لي.

- ولكن لماذا لم تأخذ بدلة على مقياسك؟

- أنت أيضًا على حق، ولكن ليتك كنت رأيت عيني عريف الإعاشة الزائغتين وجبينه المعقوف الذي يبدو عليه بوضوح أثر البيريه، ووجهه الذي أحرقته الشمس، كيف امتلأ بعلامات الغضب حينما قلت له بكل أدب واحترام "عريف حنظل، هذه البدلة كبيرة جدًا والبيريه واسعة من الأفضل أن تبدلها لي بأخرى أصغر"، تحوَّل العريف رأسًا إلى نار تكاد أن تحرقني:

- يالله بسرعة خذ بدلتك واغرب عن وجهي قبل أن أرسلك إلى الحلاق ليلمع رأسك، توًا قد جاء إلى الخدمة ويريد أن يجادلني وأن يعلمني عملي، وكأنني لست عريفًا أو إنه لا يرى خيوطي الثلاثة، هيا أغرب من هنا.

- على كيفك يا عريفي، أنا لست خادمًا أمام باب أبيك، حتى تكلمني بهذه الطريقة، إننا نخدم الوطن من خلال الجيش، وأنا لم اطلب منك صدقة.

بعينين ملأهما الشر والحقد قال:

- لا أحد أفسد علينا متعة عملنا غيركم أنتم أصحاب الأقلام والمدارس.

- يبدو أن العريف رتبة كبيرة في الجيش؟

- لا والله يا گولستان ليست رتبة كبيرة، ولكن هذا العريف بالقوة يفرض نفسه على رأس الجنود الجدد، له عقل جامد كالحجر.

- يعني حنظلكم مطابق لأسمه؟

- لا..لا.. لقد اجتاز الاسم بامتياز، ونحن نسميه فيما بيننا سَكَرْ.

- سترى كيف سأجعله يبدو كأنه قد فُصِّلَ لك، فأنا لا أستطيع أن أراك في هذه البدلة التي تسع شخصًا آخر مثلك، وألا فإني سأنفجر يومًا من الضحك.

- فلتسلمي لي يا حلوتي.

- ئم.. م.. ئم

- خيرًا.. قولي ما بكِ؟

- حلوتك تريد منك شيئًا.

- أعرف ماذا تريدين.

- لا، لا تعرف ماذا أريد، هيا قل ماذا أريد؟

- تريدين قبلة، ألستُ صائبًا؟

- لا.. لا.. لا..

- إذن ماذا؟

- ملَّ الطفلان من جو البيت ليتك تأخذنا مساء الغد إلى مدينة الألعاب ليرتاحا قليلاً.

- ونحن أيضًا بحاجة إلى الراحة، أليس كذلك؟

- لقد أصبت الهدف.

- على العين والرأس.

* * *

في تلك الليلة حدثني عن العسكرية، وعن صديقه حسن محمد عثمان، قال لي:

- حسن يقتل قسوة الغربة وآلامها بنكاته المرحة، لغته العربية ركيكة، تكاد لا تكفيه للتفاهم اليومي، لكنته الكردية بادية فيها كالشمس لا يكاد رأسه الصغير يبين من بيريته الكبيرة.

في اليوم الأخير من دورة المدافع المضادة للطائرات كان الامتحان، وقف ضابطنا الآتي من تخوم الصحراء الحارقة، بقامته القصيرة القميئة وكرشه المدور قرب المدفع، نقل عصاه من يد إلى أخرى، نظر إلى بنطاله القهوائي، وبصوت جهوري صاح:

- حسن محمد عثمان.

- نعم سيدي.

تقدم حسن إلى الأمام وحينما اقترب من الضابط ضرب الأرض بقدمه اليمنى، ورفع يده اليسرى بموازاة الحاجب.

قال له الضابط بحنق:

- التحية باليمين يا حسن، ارجع وكررها من جديد يالله..

تراجع حسن إلى الخلف ثانية، ثم تقدم نحو الضابط وبقوة ضرب الأرض بقدمه، ورفع يده اليمنى لأداء التحية العسكرية.

استنكف الضابط أن يرد التحية، مدَّ عصاه باتجاه سبطانتي المدفع وقال له:

- هذوله شنو حسن؟

اقترب حسن من المدفع أكثر، وبلغة كردية خليطة بعربية ركيكة قال:

- هادا لويليكين مال مدفع زد تيارات.

ضحكنا جميعًا مع الضابط الذي كان يهتز كرشه.

سأله الضابط ثانية:

- شنو لويليكين؟

- ئانكو تنين.. دو.. يعتي ثنين.. ما تعرف أنت! أني صيحيح يكولل..

التفت حسن إلي، وقال لي بالكردية:

- فهم هذا الحيوان يا دلشاد. قل له ما قلته.

سألني الضابط:

- ماذا يقول؟

قلت له:

- سبطانتي المدفع المضاد للطائرات، سيدي.

- ئي.. ئي.. آني هيجي كال.

- عفية حسن عفية، أنت لازم تتعلم عربي زين.

- نا والله نه زين.

- ليش نه زين حسن؟

- سيدي أنت هم علم كردي، كردي زين.

- زين حسن أشكد ملاك المدفع؟

- والله آني ماعرف أنت أش كال.

- ها شد كول؟

- ما يعرف سؤال.

- دلشاد ترجم لو بالكردي.

- كم عدد جنود المدفع؟

- سبعة أعداد.

- كلّش الزين حسن، روح، عفية..

كان حسن يردد لي حينما نكون وحدنا:

- العسكرية لا تصلح لنا، هذه المرة سأجد لي حلاً حينما أكون مجازا..

كيف سأعيش بين هؤلاء السلوقية، نصفهم لا يفهمون من الدنيا حتى الآن غير الأكل، ولا يعرفون شيئا آخر، أعداد عد، حيته وحدر (حيطة وحذر).. ليش ما تحلق لحيتك؟ خوما هرو لحيتك! حراسة الليل، غسل المواعين، القصعة الباردة الفقيرة لا.. لا.. ليس هذا مكاني الحقيقي.

- إلى أين ستذهب يا فتى؟

- إلى الجنة، الجنة الثلجية الواسعة.

- أينما ذهبت سنلتقي.

- ألستُ على حق؟

- وهل للحق قرون؟

- أتصدق إني كنتُ متُ من ضيق النفس لولا أننا معًا مع الخمسة الآخرين من الكرد.

- أدرك ذلك جيدًا.

- كل يوم عشر مرات خذ التحية لأبن عمشا السودة..

تعلم عربي.. تعلم كونى بابى ته! (تعلم خصيان أبيك!).

* * *

ما كنا نتمكن أن نتحدث مع بعضنا من كثرة أسئلة الطفلين، من أين كانت تأتيهم كل هذه الأسئلة؟

- أبي لا تذهب إلى العسترية بعد الآن.. أتسمعني يا أبي؟

- لماذا يا ولدي؟

- هكذا يعجبني، العسترية لا تدعك تجلب لي البرتعال كل يوم..

- ألا تشتري لك والدتك البرتقال؟

- لا أريد برتعالاتها.. لتأخذني إلى الدكان وتشتري لي البستويت.

- شينوار لا يعرف أن يقول عسكرية، إنه يقول عسترية..

- لأنه لا يزال صغيرًا يا أردلان، إنه بيبي، حينما يكبر ويصبح في سنك سيجيد الكلام بوضوح.

- أبي لقد تعبت، احملني على كتفك.

- ليس الآن، حينما نصل باب الحديقة حينذاك، تشجع يا صغيري.

- أماه.. أماه إذن احمليني أنت.. أ.. أ.. أنا سأعطيك حلوى، لقد أخفيت قطعة حلوى تحت سريري لكي لا تأخذها قتّتي (قطتي).

أخذتني به رأفة وقلت لوالده:

- احمله يا رجل، ألا تُقدِّر مقدار تعبه، ما عادت ساقاه تحملانه، يا لقسوتك!.

انحنى عليه وابتسم له:

- وهل ستعطيني قطعة حلوى؟

- نا.. نا.. واحدة بس.

- تعال حبيبي.. يا ولدي العزيز.

عندما حمل شينوار، حينها سأل أردلان والده:

- أبي.. لماذا لم أتعب أنا؟.

- لأنك رجل نشط يا ولدي، لقد كبرت.

- لا والله لستُ رجلاً، مازلتُ صغيرًا، أين شارباي؟ حينما ينبت لي شاربان مثلك سأكون رجلاً.

- من قال لك ذلك؟.

- أمي قالت.

التفت الطفل ناحيتي وأكمل حديثه:

- أليس كذلك يا أماه؟

- نعم يا نور العين يا ولدي..

حينما وصلنا الجسر صرخ أردلان:

- هوهو، انظروا إلى طيور الماء كم هي كثيرة!.

كانت أشعة الشمس ترقص بفرح على ألحان سيمفونية رقيقة على وجه دجلة الباسم، على ضفَّتي النهر كانت تنتشر أسراب من طيور الماء، أحيانًا كانت بعضها تُهاجم الماء بقوة وتغوص إلى الأعماق مثل الطلقة، وسرعان ما كانت ترتفع ثانية إلى السماء. قارب صغير ليس فيه أحد كان يرقد بخمول في الضفة الأخرى.

- لِمَ يا أماه تعشق هذه الطيور الماء وتظل فيه؟.

هذا ما قاله أردلان لي، وأنا أحدق بشوق إلى أمواج النهر قلت له:

- إنها تصطاد السمك لأنفسها.

- كيف؟

- أووه، يكفي، وكيف لي أن اعلم.

- أبي كيف تصطاد السمك؟

- بمناقيرها تصطاد السمك.

- أين التَمَكْ؟.

- السمك في الماء يا ولدي.

- صيدوا لي واحِدة.

- ليس بوسعنا ذلك.

قال أردلان:

- قلْ لطير الماء أن يصطاد واحدة لشينوار يا أبي!.

- يبدو إنك من الآن قد خرجت عن طورك، ولن نستطيع السيطرة عليك يا أردلان.

- لا تتحدث هكذا عن ولدي، هو لم يقل شيئًا.

- نعم، نعم، لا تتكلم عني هكذا، وهل أنا مازلت صغيرًا؟.

- ما هذا الحلف يا ولد، يبدو أنك وأمك متفقان جدًا.

- وهو كذلك أنا وولدي متحالفان معًا، فاحذر!.

حينما اجتزنا الجسر، التفتَ ثانية خلفه ونظر إلى النهر الذي خلفناه وراءنا، كل واحد منا أمسك بيد طفل، واجتزنا مبنى البلدية، بصعوبة، اجتزنا الشارع الغاص بالسيارات إلى الجانب الآخر، بعد دقائق صرنا وجهًا لوجه قبالة تمثالي الأسدين المصبوغين باللون الأبيض، لا أدري أي عاقل قد أمر بصبغه باللون الأبيض، أليس في مخهم ذرة عقل؟ من رأى أسدًا أبيض؟ في ذات اللحظة التي رأى فيها أردلان الأسدين قال:

- انظر يا أبي، هذا هو الأسد، هوو كم هو كبير، انظر انظر كيف يسيل الماء من فمه..

من على كتف والده صاح شينوار:

- أين الاثد؟..أين؟

ردَّ عليه أردلان:

- هذا هو ألا تراه؟ هوو يا لذنبه الطويل، عوع.. عوع.

سأله والده:

- أتحب الأسد يا أردلان؟.

- نعم يا أبي إنه صديقي، أنا لا أسير حافيَّ القدمين أبدًا، لهذا لن يأكلني، ذات مرة رأيته في التليفزيون يطارد الأطفال الحفاة.

- نعم.. نعم يا ولدي الأسد يحب الأطفال النظيفين، ويصادقهم، إياك أن توسخ نفسك ها وإلا فإن الأسد سيزعل منك!

- حسنًا يا أبي.. حسنًا.

- الأثد يصيح "هوو.. هووو" بصوت عالي.

الأثد قذر.. قتتي جميلة وعاقلة وتقول "ميوو.. ميوو.. ميوو" وأنا أيضًا أقول لها "ميوو.. ميوو.. ميوو"

- كفى إلى متى تبقون حول الأسد؟

- عفوك سيدتي، هيا تقدمينا..

- مع السلامة أيها الأسد، مع السلامة يا صديقي.

- قذر، قذر أنت أيها الأثد.

من خلال الخطوط البيضاء اجتزنا الجانب الآخر من الشارع، سياج الحديقة العامة أصبح مقابلاً لنا، سرنا بضع خطوات، اتجهنا يسارًا، أصبحنا في مدخل الحديقة التي كانت تفوح برائحة الورد والرياحين دخلنا الحديقة.. لم يتمالك أردلان نفسه، أسرع إلى حيث الزهور.

قال شينوار لأبيه:

- أنزلني يا أبي، سأذهب إلى أردلان

بهدوء أنزله من كتفه، وقبَّلهُ.. أسرع شينوار إلى أخيه، قال الأب لهما:

- كونا عاقلين، لا تقطفا الأزهار، كي آتي بكما دومًا إلى هنا.

قال أردلان:

- حسنًا أبي حسنًا.

لكن شينوار التفت إلى الخلف باسمًا وقال:

- سأقطف زهرة واحدة!

- سأزعل منك، إياك.

- لا.. لا.. لن افعل.

أسرعا إلى رياض الزهور المتفتحة الملونة، كانت أصوات الطيور المتنوعة وزقزقة العصافير تمنحني حيوية ونشوة كبرى، جلسنا أنا وهو على مصطبة واسعة، عدد من الطلاب كانوا مشغولين بالقراءة، وصوت الأطفال كان يأتي من الطرف الآخر، قال لي ضاحكًا:

- أهلاً بك يا گولستان.

- أهلاً حبيبي.

- المساء جميل أليس كذلك؟

- رائع جدًا، جنة معك.

- هيا جمِّلي المساء بكلماتك الطيبة.

- هل ستسخر ثانية من كلماتي؟

- أمجنون أنا يا مجنونة؟

- هذه الحديقة الشاسعة رائعة.

- هذه الحديقة كانت ملتقى الشبان الكرد، لاسيما الطلبة، كل أيام الجمعة كنا نلتقي هنا، لقد قرأت كثيرًا في هذه الحديقة، لنا ذكريات كثيرة في هذه الحديقة.

- والآن!

- كل واحد مضى في سبيله.

- كيف أنت والأوراق والكتابة الآن؟

- ليس على ما يرام.

- لِمَ؟

- الضابط يكره الكتب، ويجن جنونه عندما يرى أحدًا يقرأ، قبل الإجازة بأيام كنتُ جالسًا على مقعد المدفع وأقرأ قصة، فجأة سمعت صوت ارتطام أقدام، وقال صديقي القريب مني:

- خبئ الكتاب، جاء قدّوري.

قبل أن أتمكن من إخفاء الكتاب، صرخ في وجهي بصوت جحش طائش:

- دلجاد جم مرة كلت لك لا تقرا.. لا تقرا.. إذا الطيارات جت شن كوللهم يا با دقيقة خلي دلجاد يخلص القراية وبعدين؟ رئيس عرفاء عبد دخلو بدفتر الذنب، أنت ما يفيد وياك، جيب الكتاب

جيبو، آني أعلمك العسكرية. سحب الكتاب بقوة من يدي، وطيَّره في الهواء، ودخان الغضب كان ينزف من أنفه.

بهدوء قلت للضابط:

- لا خطورة كبرى الآن، لم نستلم أية أوامر مشددة بشأن الطيران المعادي، نحن الآن في وضع طبيعي وحالة اعتيادية، أخر أمر حسب السجل هو الرمي مقيَّد، لا أعتقد أن القراءة مضرة.

- ئو فوكها هم تحجي!

- ليش الحجي هم ممنوع؟

- كل شي ممنوع عينيك عالسما وبس، إحنا لازم نحرك الجو حرك، افتهمت يا وَلْ؟

- زين والرادارات شنو شغلها.

- حضرة جنابك تستنكف دكول سيدي، مو دلجاد؟!

- لا العفو، بس نسيت سيدي.

- رئيس عرفاء عبد اكتب بدفتر الذنب، الأفندي يستنكف يكول سيدي لآمر الرعيل، عود يم الآمر تفلسف براسي.

- زين سيدي هاي هم كتبتها.

- آني أعلمك العسكرية اشلونها يا دلجاد اصبر عليَّ اصبر..

- إذن كيف تقضي وقتك بلا قراءة وكتابة؟

- ليضرب رأسه بالحجر، أو تعتقدين أني سأمتثل لأمره، أنا أقرأ وأكتب ولكن في الخفاء وبسرية تامة.

- اترك هذا الأمر طالما هم متشددين في هذا المجال أخشى أن يؤذونك لهذا السبب.

- لا أستطيع بالله لا اقدر، الكتاب لدي هواء، ماء، أنتِ، خبز. بدون الكتب لا أتذوق طعم الحياة.

- حسنا أيها الفتى، لو طلبت منك باسم هذا المساء الجميل أن تقرأ لي شيئًا جديدًا مما كتبته، هل ستخذلني؟

- أيتها المجنونة، هل جئت بكِ إلى هنا لأرفض لك طلبًا؟

بهدوء رفع رأسه إلى شجرة - الكاژ- التي كنا نجلس في ظلها، نظر إليَّ ثانية، نظرتُ إليه، كنت أرى نفسي في عينيه، وتحركت شفتاه:

تلك العيون

التي ليس مثلها عيون.

يا ترى أهُما ينبوعا نور؟

يا لابتسامتهما الملأى بالندى!

لِمَ لا تلقيان علي السلام؟

تلك الجدائل الجميلة الرفيعة المنسابة على وجهك، شعرة، شعرة

كم تمنحك الدلال

لقد سلبت العقل والفؤاد

رحماك رفقًا بالفؤاد.

- ها..ها.. قد سلبتك العقل والفؤاد.. حاذر.. ستغرق!!

- وهل اليوم قد غرقتُ في بحر عينيك؟

- منذُ متى؟

- منُذ أن..

- إياك أن تكمل، سأزعل منك..

- حسنًا.. لن أكمل.

في ذات اللحظة أقبل الطفلان نحونا وقال أردلان:

- شينوار يريد أن يبول، أين يبول؟.

بحثنا في طول الحديقة وعرضها ولكننا لم نعثر على مرافق صحية.. وأخيرًا قال دلشاد لرجل عجوز يعمل في الحديقة:

- ألا توجد هنا مرافق صحية يا عم؟

بصوت متعب رد الرجل:

- لا والله لا توجد..

- لكن هذا الصغير، يريد أن يبول ولا يستطيع أن يتحمل أكثر، أين يبول؟.

- خذه قرب السياج، إنه مكان غير مناسب، لكن لا مكان أفضل منه، نحن أيضًا لا ندري متى ستقوم البلدية بإنقاذنا من هذه المشكلة.

بقينا هناك أنا وأردلان، قصد شينوار وأباه السياج، بعد فترة وجيزة عادا، وقال دلشاد:

- أووه كم كانت الرائحة كريهة هناك.

- واأسفاه أن تُسقى ورود كثيرة بالبول!

فجأة التقت عيناي بقامة شكل هندسي رفيع بارز مقارب لهيئة منارة جامع، وسط الحديقة.

قلتُ لدلشاد:

- هلا قلت لي ما هذه المنارة هنا؟

- ليست بمنارة.

- هل هو بناء فني؟

- لا أبدًا.

- ما هو إذن؟

- اذهبي إليه بنفسك واقرئي بدقة ما مكتوب على الفرش الحلاني الأبيض.

تملكني الفضول، قمت من مكاني واتجهت إلى هناك، نظرت إليه جيدًا، درت حوله، قرأت ما مكتوب عليه:

"ضريح الطيار الشهيد الخالد في سبيل الوطن (..) الذي استشهد في حركات بارزان سنة ١٩٣٢".

رأسًا قلتُ في نفسي:

- أيها المتآكل، الخامد، ما الذي أتى بك إلى ديار الكرد في بارزان لتلقى حتفك؟

بغضب هادر عدت إلى مكاني، قبل أن أجلس قال لي دلشاد:

- أرأيت تلك الكتابة بأم عينيك؟

- أجل. لكن من يقول إنه شهيد؟

- فقط البلاغات العسكرية تقول ذلك، لكن الناس كلهم يعرفون إنه قتيل آخر بلا قيمة تذكر.

- وما تلك القبب الأخرى هناك؟

- إنهم أيضًا أمثاله الراقدين تحت التراب.

- هم أيضًا قتلى كردستان؟

- أو تظنينهم كانوا في القدس؟

- كم زلق الطيور وبراز العصافير يزين قببهم!

- تلك هي تحيات خاصة من الطيور والعصافير لبطولاتهم الهمجية.

- تأخر الوقت، ألا نعود للبيت؟ أكيد إن أمك الآن تنتظرنا في الباب.

- ولِمَ تكون في انتظارنا؟

- لتصب جام غضبها علينا، ألم تقل لنا عودوا مبكرين؟

- لا تخافي، لن تقول شيئًا.

- يا الله يا أولاد اسبقونا.

حينما غادرنا حديقة القتلة، صوب محل وقوف باصات نقل الركاب، كان الظلام يأمر خيوطه باحتلال الشارع بهدوء.

* * *

قبل عيد نوروز بأيام، جلب عشر باقات نرجس عطرة، ريّانة، إلى البيت، أعطى باقة لأمه وأخرى لأبيه، وثالثة لأخته، ووزع الباقات بدلال في غرفة نومنا الصغيرة، وزرع خصلات شعري بعدد من زهرات النرجس.. وبحجة شمها اقترب مني حد الالتصاق ولاطفني قائلاً:

- حقًا يا گولستان، لماذا رائحة هذه الأزهار في شعرك أزكى من الباقيات في الغرفة؟

- هلا ابتعدت عني قليلاً يا رجل، فالنرجس كله سواء، فقد جلبتهما معًا.

- لم تقولي لماذا؟

- ليس هناك أي فرق، ماذا أقول؟

- لا..لا.. لأن وجهك مشرق، وتريد زهرات النرجس التي تُزيِّن شعرك أن تنافسك في الجمال فتحاول أن تنشر رائحة زكية أقوى من الباقيات..

- بالله عليك دعنا من مضغ كلمات الكتب!

- برأس أبيك هذه كلمات القلب، القلب الذي يعيش بحبك يا نرجستي..

دلشاد.. يا قلبي.. أتعرف إني الآن أتحرق إليك، إلى كلمة منك، نظرة، حركة، ابتسامة منك، أين أنت يا دلشاد، تعال، كفى ما عدتُ

أقوى على الانتظار، هيا يا حبيبي تعال، تعال.. فأفكار هذه الليلة تمزقني إربًا إربًا، تعال يا دلشادي واقتل هذه الليلة، تعال وانقذني من براثن الظلام، هيا يا دلشادي تعال، تعاااااااااااااال.

* * *

الحياة في ظل الحرب خامدة، صدئة، والعنادل صامتة كأنها فقدت ألحان التغريد والطيران. هكذا هي الحرب، لا تعرف الأصول والرسميات، تلعب بالأرواح، مثلما يلعب الأطفال بالدعابل، منذ اليوم الأول قال لي:

- لا تخشي شيئًا، لا تُفكري كثيرًا حينما أتأخر أيامًا فوق موعد إجازتي المحدد؛ لأن قوانين الحرب هي سيدة الموقف، وهي قوانين خاصة، لا أنا ولا آمر وحدتي نعلم متى سنلم معداتنا الشخصية والعسكرية وننتقل إلى قطاع آخر من قواطع النار والدمار والحرب الهوجاء الظامئة للدماء، هكذا هي الحرب، الحياة فيها باهتة، بلا لون..

لهذا حينما مرَّت أيام على موعد إجازته الدورية، استطعتُ أن أطرد الأفكار السوداء من مخيلتي وأن أصارع الأيام، حتى وصلت رسالته، حفظتها كلمة كلمة، وما تزال كلماتها تتراقص أمام عيني:

"گولى.. گولستاني..

يا روحي وحياتي.. أنا مشتاق، مجنون لقامتك، وجمال عينيك وكلماتك، آه كم أحبك يا گولستان، أتصدقين أنَّك لا تغادرين الذاكرة قط؟ في الليل أراكِ ضاحكة، باسمة في جمهورية النجوم، في النهار تتحَديِّن الشمس، تكلمينني، أكلمك، وجهك المفعم بالأمان يأبى أن يفارقني، إنه معي في حلي وترحالي، الآن أدرك كم أحبك يا گولستاني.

يا زهرتي.. ليتك تعرفين حجم جحيم البرد هنا، إنه البرد والصقيع المثقل بثلجه الأبيض، الأرض بيضاء، الأشجار بيضاء، الصخور بيضاء، إنه الثلج، كل شيء أبيض، ولا مساحة للسواد بتاتًا غير الدخان الأسود المتصاعد من حقول النفط في مدينتنا التي ندعوها بمدينة الذهب الأسود (تُرى متى ستعود إلينا ثانية ياگولستان؟)، الثلج قد افترش كل شيء هنا، يا للجمال، يا للثلج.

گولستان.. تصوري أن الماء الذي نغسل به وجوهنا في الصباح يتحول بعد دقائق قليلة إلى جليد صلب لا يتكسر إلا بصعوبة، وأن الصخور وألسنتها الحادة المتدلية قد ازدانت بخناجر ثلجية تتدلى إلى الأسفل وكأن بها رغبة جامحة لعناق الأرض البيضاء كما هي رغبتي الآن لعناقك يا گولستان، حتى أرنبة أنفي تبدو حمراء قانية بلون الدم، ومن شدة البرد المصحوب بالريح الصارخة لا أحس بأن لي أذنين، فقد قطعهما منشار البرد الحاد، لكن ومع هذا؛

حينما أتذكر جبينك الذي سرق من الثلج بهاءه، وأنفاسك الدافئة وعينيك اللتين تشعان نورًا وحبًا، وأحلم بليلة حالمة بين ذراعيك، وضحكات طفلينا وكركراتهم وضجيجهم العفوي، يتبدد هذا البرد كله ويهرب لا أدري إلى أين، لذا أقف الآن هنا أتأمل الثلج والجبل والجليد الذي يمتد أينما نظرت، خلفي.. أمامي.. يساري.. يميني، حتى موضعي قد نام فيه الثلج وبني له فيه عشًا.

ولكِ يا امرأتي التي يطول ليلها أكثر من ذي قبل شوقي المجنون وقبلاتي من موطن الثلج والكبرياء هذا، لا تنسي أن تدثري الطفلين جيدًا في الليل، وللجميع تحياتي وحبي، وأحبك يا گولستاني..".

* * *

لم أره حزينًا مثل ذلك اليوم قط..

كان وجهه قد غدا خريطة للحزن ومعالم الأسى، من يراه يحسب أنه يحمل كل هموم الدنيا، عيناه نصف المغمضتين تحت لواء الرموش السوداء الكثيفة كانتا تمثلان لوحة خاصة من عالم الحرمان، لم يكن يتكلم، وما كان يودَّ أن يُكلمه أحد، كان قد فقد شهيته للأكل، ويبدو ضعيفًا وكأن مرضًا خبيثًا ما قد نال منه.. كم ألححتُ عليه أن يخبرني عمَّا قد حدث، لكنه أبى الكلام وكأن شفتيه قد خيطتا.. حينما أسدل الليل ستاره، قلتُ له:

- بالله عليك قل لي ما سبب حزنك العميق هذا، إنك تقتلني هكذا، أرجوك تكلم وكفاك تعذيبي، أرجوك تكلم أرجوك..!

ولم استطع أن أتمالك نفسي وبكيت وأودعت رأسي بين جنبيه، بهدوء سحبني من صدره، فتح عينيه، مسح دموعي بيديه وبصوت يشوبه البكاء قال:

- "نجدت" رحل عنا، نجدت صديق الدراسة وشوارع الموصل، وأزقة الوزيرية وجسر الصرافية وليالي القطارات وصخب الأصدقاء، نجدت رحل وغادر الدنيا، تركنا وحدنا، ترك سراب التي كانت تنتظره بشوق نادر، ترك نجدت الأختين والأم المقوَّسة الظهر، ذهب نجدت ولم يقل لأي منا وداعًا، يا للحيف أن تقتل بيد أصدقائك!

- كيف ذلك؟

- هو وأربعة جنود آخرين تفتتوا قطعًا، قطعًا بعتاد المهداد المضاد للطائرات.

- لم أفهم.

- فجأة ظهرت طائرتان سوداوتان بمنقار معقوف في سماء كركوك، تقصدان أهدافهما، تملَّك الخوف والرعب قلوب الجنود على مدافعهم المضادة للطائرات وهي تقصف وتزلزل الأرض، ارتفع صوت آمر الكتيبة الذي كان تحت الأرض في ملجئه المحصن من خلال جهاز التنوي صارخًا بهستيريا:

- الرَّمي حر، طيران مُعادي، الرمي حررررر.. افتحوا النار.

البطاريات الست بمدافعها الخمسة والثلاثين فتحت النار، إلا مدفع نجدت ورفاقه، كان ساكتًا أخرس، المدفع القريب منهم رشَّهم بأول صلية، كان الجندي المسؤول عن رفع وانخفاض السبطانة للمدفع قد ارتبك لدرجة أنه قد خفض سبطانة المدفع لحد مستوى المدفع المجاور له، لذا سقط الجنود الخمسة في الحال بلا روح، وخرس مدفعهم للأبد.. يا للحيف، يا للأسف أن يُغادر هؤلاء الشبان رغمًا عنهم، وبلا وداع وبهذه الهمجية الحياة، دون سبب معقول! ما استطعت أن انظر إلى جثثهم الممزقة الغارقة في بحر أحمر من الدماء، لِمَ؟ ومِنْ أجل ماذا؟

- ليرحمهم الله أجمعين.

- آه يا سراب، أيتها البائسة، بقيت وحدك، وذبحت أحلامك.

- كانت صديقته؟

- كانت صديقة الدراسة ورفيقة القلب، كان الاتفاق أن يذهب أهل نجدت لخطبتها أول الشهر.. ليكن الله معك يا نجدت، يا صديقي الجميل يا ذا النظارات والابتسامة المميزة..

* * *

ابتعد عني أيها النوم واهرب، إنني أعلنت عليك الحرب الليلة، كيف سأنام ودلشادي لم يأتِ بعد، كم من الأيام والشهور مرَّت وأنا

انتظر هذه الليلة، الليلة التي سيكون هو ضيفًا عزيزًا في أعماق القلب، الليلة سينقذني من الهموم والشكوك التي تهاجمني بشراسة. تُرى لماذا تبدو هذه اللحظات طويلة، طويلة جدًا! لِمَ الزمن هذه الليلة هكذا بطيء، أهو عربة يجرها حصان مكسور الساقين؟

دلشاد، حبيبي قد أطلت، كفى، تعال، ما عدتُ أقوى على التماسك، ماذا أفعل يا دلشاد؟ الأفضل أن أكسر رقبة الليلة بالاستماع إلى الراديو..

"جر.. جر.. What do you say ?.. جر.. جر.. سكورا أحلى صورة، جر.. جر.. جر، وعبَّر مجلس الأمن الدولي عن استيائه الشديد لقيام إسرائيل بهدم ثلاث دور تعود للمواطنين العرب في فلسطين المحتلة.. جر.. جر.. أحبك يا حياة قلبي.. وأنا من غيرك ولا حاجة.. جر.. جر.. وجرح عريف في الجيش التركي لدى مداهمته قرية كردية مهملة في جبال هكاري، جر.. جر.. هنا الإذاعة الكردية في بغداد.. مع برنامج "بعد منتصف الليل"، أسعدتم مساءً مستمعينا الكرام، يسعدنا أن نلتقي معًا هذه الليلة مع قصيدة لصديق البرنامج "نيروز" تحت عنوان "مع الرفاق في حانة" كونوا معنا مستمعينا الأعزاء:

لازلت في انتظار ذلك اليوم
الذي نلتقي فيه

نبحث عن أهدأ حانة

نجلس مثل كل مرة

نُعطر المائدة بألوان الشراب

ومعًا نملأ الكؤوس ونرفعها

ونقول بصحتكم..

بذور الفرح انمحت.. انتهت

بعد الشرب نطلب البكاء.. يا للبكاء..

ونبكي.. نبكي..

"تي ري رن.. تي ري رن.. تى ري رن.. تي ري رن"

"اسكب جراحك، وهموم قلبك أيها الشاعر.. أتجعل سم هذه الحياة كلمات.. لِمَ انمحت بذور الفرح وانتهت لِمَ لِمَ؟"

مع الكأس والشراب نحاول أن ننسى

همومنا، آلامنا، والأسى

ونُقرِّب

آمالنا، أفراحنا، أحلامنا

من يوم حريتنا

ونُريح الرأس المتعب من الأفكار

والقلب المحاط بالسهام

"تي ري رن.. تي ري رن.. تى رى رن"

"أيها الشاعر يا رفيق الكأس، حتى متى تشرب؟ ألا يكفي، أما تلفت أمعاؤك، أتريد أن تقتل نفسك بيديك؟ لِمَ أيها الشاعر نفدت بذور الفرح وانتهت؟"

نتمنى أن تكونوا قد قضَّيتم معنا وقتًا مريحًا، قبل أن نودعكم، باسم البرنامج نهديكم أغنية أياز يوسف:

"إن يهرب الصياد من طريدته ماذا افعل؟

إن لم ينم الطفل على صدر أمه ماذا افعل؟"

يا حبيب القلب دلشاد، ها هو الليل يمضي ولم يبقَ إلا ساعات ويهل الفجر، وأنت لم تقبل، ماذا يعني التأخر لديك يا دلشادي، ألا يكفي، أتدري إن الساعة تجاوزت الواحدة والدقيقة العشرين؟ تعال، هيا تعال لنقضي الساعات القليلة الباقية للصباح معًا، كي أقف صامتة أمام عينيك، وأصلي صلاة الحب بين يديك، هيا أقبل، أقبل!

"إن غدًا نثار الثلج نارًا ماذا أفعل؟

"إن يُعدموا الأسد "بيران" في شيخوخته ماذا افعل؟

إن لم يُدرك أحد ألم هذا القلب ماذا افعل؟"

تعال يا دلشاد وشُمَّ الرائحة العطرة التي تفوح من غرفتنا الصغيرة، للأسف لقد اشتريت باقات النرجس هذه من السوق، لولا غيابك لكنت أتيتني بالنرجس مثل كل مرة، لا أدرك سر تعاسة هذه

الزهرة التي وضعتها في شعري، أوَ تعتقد أنها كانت تتمنى أن تزرعها أنت بيديك في شعري مثل السابق، أوَ تظن ذلك يا قلبي؟.

لِمَ لا أقوم، وأبحث عن ذلك الدفتر الذي كان يأخذه معه ويدوِّن فيه شيئًا من كتاباته ويومياته! حقًا سأقضي بعض الوقت مع كلماته وسطوره إلى أن يأتي، لكن أين هو الدفتر؟ في الكومودينو؟ لا لا.. فيها الكتب فقط، أظن أنها تحت الصحف الموجودة في دولاب الملابس، لأبحث عنها، لأسكِّت صوت الراديو أولاً..

ماذا تفعل بكل هذه الجرائد القديمة يا رجل؟ وما فائدتها؟ أهذا هو الدفتر؟ نعم.. هو بعينه، وجدته.. تفوح منها رائحتك يا دلشاد! يا للعنوان الكافر - أوراق مُعطَّرة برائحة البيبون والبارود - لأرش بعض الماء على وجهي، ولأشرب نصف قدح ماء، كي أبدأ بقراءة دفتره بدقة، يا الله.

أوراق مُعطَّرة برائحة البيبون والبارود

الورقة الأولى

صباح الخير يا رائعتي.. إنه أول الصباح، قبل قليل كان آذان الفجر يعلو ويعلو ويمنح القلوب شيئًا من الأمان والطمأنينة السماوية، إنها طلائع الفجر، هواء بارد، عطر يهب بانتشاء وفرح باد، وكأنه قادم من أطراف الخابور والجبل الأبيض، ومثقل بأشواقك، حتمًا إنك الآن نائمة وقد تكونين في حلم جميل، وقد ترينني في الحلم أليس كذلك؟

- الرمي حر.

- الحضيرة الثالثة تبلغ.

إلى صباح آخر مع تحياتي يا وردتي.

الورقة الثانية

الشمس في كبد السماء والأرض تحترق، والريح تُصفِّر، تحت ظلٍ لا يقيني حر الشمس على صندوق خشبي أجلس، في نصف قوس دائري تمتد أمامي لوحات عليها كتابات وأرقام هي لمراصد أرضية:

عرب.. ٤.. صباح.. ٣٤.. سماء..

خوذة، أكياس رمل، تليفون أوامر، ودوشكا خرساء، وفي كل الاتجاهات تسافر أسلاك الضغط العالي بشكل لا هندسي، تشتد العاصفة المحملة بالتراب والرمل البصراوي الحارق وتسافر باتجاهي، وأصير في منتصفها، تتجاوزني، تتركني فريسة لبقايا الرمل والتراب في بدلتي الخاكية وشعر رأسي القصير، وجهي صار بلون التراب، حسنًا إنك هناك، على ضفاف الخابور الأزرق..

الورقة الثالثة

السماء تصرخ بجنون لا حد له، والقذائف تسقط في كل مكان وبقعة دون رحمة، بيني وبين الموت لحظات أو ثوان، هذه هي الحرب، دماء، هلاااك، موت، رعب، موت العصافير والحمامات..

متى سأموت؟ الآن قبل أن انطق بحرف واحد؟ أم بعد قليل؟ لأرى آخرين يموتون قبلي! إلهي ما أتعس أن أرى جثة صاحبي ممزقة! يداه في مكان وساقاه في مكان آخر، ورأسه في التراب، ما نهر الدم هذا الذي نتلوى فيه؟ ما هذه النار المستعرة التي أوقدها الحمقى ويحرقوننا فيها؟

الورقة الرابعة

اعذريني يا عزيزتي.. لا أستطيع أن أقول لك مبارك عيدك في العيد السعيد، فالحرب حبيبتي لا تعرف معنى الأعياد والقبلات، لا تخافي يا حلوتي، فمازلت حيًّا أتنفس الهواء العفن، واثق أنا من أن الله قد حفظني من ألسنة هذه النيران للآن بفضل حبك، أتعرفين أن الرصاص والقذائف والهاونات في أيدي المقاتلين قد صارت مثل لعب الأطفال، أية ألعاب هذه.. إنها ألعاب الموت..

يا للموت الرخيص الرخيص!

الورقة الخامسة

أين أنتم الآن يا أصحابي؟!

زياد، أين أنت الآن، يا صديق الصبا والكرة؟ أمازلت على قيد الحياة؟ أم إنك الآن مدفون في التراب؟ أمدفون أنت بكامل ملابسك؟ أم بدونها؟ بالبوسطال الثقيل؟ أم إنك بقيت في العراء فريسة لمخالب الذئاب الظامئة للدماء البشرية؟، هلا قلتَ لي كيف اختفيت وإلى الأبد يا زياد؟ أعرف أن سلامي لن يصلك بعد الآن..

وأنت يا يونس يا ابن غفور أما تزال تتنفس ذلك الهواء الفاسد في هذه الحياة؟ أفقدت أنت أيضًا، يدًا.. ساقا.. عينًا.. أذنًا؟ يونس أما تزال تعاني من الغربة والكآبة والقلق واللاوجود مثلي؟ أمازلت تردد عبارتك: أين الحياة؟

وأنت يا هيمن يا ابن مصيف صلاح الدين، يا رفيق مساءات الوزيرية وشارع المغرب، يا عاشق عطور الأعظمية وكورنيشها وفتياتها، هل سافرت بلا جواز إلى ذلك العالم الذي كنت تسميه "الجنة الشاسعة"؟ أتوقع أن تسخر من هذا الوضع الهزيل وتغادر هذا العالم، فلك الشجاعة الكافية لتقتل نفسك، ولا تبقى كما فقاعة الصابون في هذا العالم، العالم البائس الذي نحن فيه.

ورقتان مطويتان داخل الدفتر

الورقة الأولى

كانت ضائعة في ألوان خضراء داكنة وفاتحة هذا اليوم، وتسريحتها الجديدة المطعمة بنتوءات صفراء، ذهبية تتناسب مع وجهها الدائري، كانت الدموع تجرف معها بعضًا من الكحل الأسود لرموش عينيها، نظرتُ إليها، لم أقل لها شيئًا، تفادت نظراتي ودفنت رأسها بين صدرها وأغمضت عينيها، صوت هادئ معطر بنشيج البكاء كان يصدر من أعماق صدرها بين الفينة والأخرى، دون أن يطرق الباب، دخل المحاسب.. دفنت رأسها ودموعها في سجل الأستاذ العام، لتداري وضعها القلق، لم تتكلم، لم تنطق بحرف واحد، لم أحب أن أضايقها بأسئلتي وأن أضيف إلى حِملها حِملاً آخر بفضولي، ففضلتُ الصمت، إلا أنني لم أعد احتمل الصمت وأخيرًا قلتُ لها جملة واحدة فقط:

- عودي إلى البيت.

لم أقل لها لغة الأرقام لا تحب الدموع، لكنها لم تنطق بحرف واحد واكتفت بأن هزَّت رأسها عدة مرات، وكانت الدموع ما تزال تغسل وجهها بالكحل الأسود..

الورقة الثانية

يداي.. يداي، ما هذا اللون الأزرق الذي يغزوهما؟ انظر.. انظر.. إنه الموت، سأموت، اقترب مني، اقترب أكثر.. أكثر، إلهي ما هذا الألم الحاد الذي يلم بأحشائي! كفاك حركة أيها الساكن فيَ، يا طفلي الحروك، من قال إن للأطفال براءة؟ كفى.. كفى أرجوك اهدأ يا طفلي، ها أن روحي تُقبض..

هيا ساعدني لكي أقف على قدمي، أووه.. لا أستطيع، أين قدمي؟ كيف خارت قواي لهذا الحد؟ أواه، إنه الموت، نعم الموت بعينه، ساعدني لكي أقف، إنه يمزقني، يقتلني، أرجوك افعل شيئًا، أي شيء، لا تقف صامتًا كهذا الجدار، نادِ على أمك لتقف بجانبي، أسرع إلى بيت القابلة، أسرع.. إني أتحطم، أموت، أموت، آه يا طفلي، بالله عليك رحماك، كفاك حركة، فها أنا أموت، ارحمني يا طفلي العزيز، لا تكن مؤذيًا هكذا، أووه.. أووه.. أسرع إلى أمك فخطوات الموت تقترب، ها هي أني أراها!

حينما غادرت الغرفة كانت قد فقدت الوعي وعيناها تحملقان بجنون تام في سقف الغرفة الصغيرة..

الورقة السادسة

ليل.. إنه ليل دامس الظلام، والعواصف الهوجاء لا تهدأ، أنا وحدي في الحضيرة، عزيز كاظم حنتور وفالح صالح قد ذهبا إلى التدريب الليلي عند حضيرة رأس العرفاء "عبد ضحوي حربي"، يا تُرى لِمَ تتحد الآلام والهموم مع هذه العواصف الهوجاء وتهاجمني دفعة واحدة؟ يا لهذه الاتفاقية اللعينة! الظلام.. الظلام.. من يحب الظلام؟ من يحب الخوف؟

تلك أضواء الحقلانية من بعيد تبتسم لأحزاني، يا للأضواء الساطعة، يا ترى كم هي تضيء قلوب أولئك الناس المتجمعين مع بعض حول المدفأة في أي بيت من بيوت الحقلانية بأحاديثهم وضحكاتهم ومرح صغارهم.. كم تافهة أنت أيتها الحياة"

ما كنتُ أفكر هكذا سابقًا، ولم أكن أخشى الظلام قط، لكني الآن أخاف، وأخاف بحق، لأني اعرف حجم الظلام الذي قد عمَّر بيتًا له بقلبك الآن يا گولستان.. أوَ لا اعرف أن الأشباح والكوابيس تهاجمك كل ليلة وتسرق النوم من عينيك! ليلٌ.. ليلٌ دامس ظالم.. ظلام مستمر..

ورقة أخرى مطويَّة

يمتد شريط الضوء الساقط في النهر، كجسر ذهبي بخطوط متراصة طيلة الليل وحتى لحظات الفجر الأولى.. وفي الصباح، يختفي ذلك الجسر الذهبي بعدما يتحول إلى خطوط باهتة أقرب لونًا إلى الماء المزدان بضوء الشمس، وتُشرق الشمس دائرة بنصف قطر، حمراء قانية، ثم يظهر النصف الثاني مليئًا بلون الدم القاني، وكأن اللون الأحمر قد بدأ يتسرب إلى القاع، على مهل ترتفع الشمس نحو السماء المستيقظة توًّا من النوم، ويصير لونها فضيًا هادئًا، تضيء النهر والنهار..

النهر يجرى من حديثه إلى الحقلانية، يُخلِّف وراءه أشجار النخيل، قرب فندق أيار ينقسم النهر إلى قسمين، تاركًا مساحة خضراء عالية حول شقَّيه.. باسقةً تقف أشجار النخيل على جانبي الفرات تعانق بعضها بعضًا بودٍّ خفي تفضحهما نسمات الهواء التي تداعب سعفها المنحني إجلالا للشمس، والعاشق للنهر مثلما الأهل والأحباب في الأعياد. والفرات هادئًا ينسل ويبتسم للنخيل والأعشاب والجند، تزداد خضرة النهر حينما يضللها النخيل بظله الداكن، ونحن الثلاثة نمتع أعيننا بهذا المنظر الفجري السامي

الذي لا توازيه متعة غير ضحكة طفلي الصغير وهو يداعب ألعابه المتناثرة في أرجاء الغرفة بلا انتظام.. أحب الصباح كثيرًا..

ارتفع صوت آمر الكتيبة من خلال "الأمبلي فاير":

- بطريات.. رعائل.. مجاميع..

بداية الإنذار الصباحي، مع التأكيد على الحيطة والحذر، اتخذ كل من حميد كليب البصراوي وعوديشو الشيخاني مكانهما على المدفع، جلس حميد على كرسي العدد الرامي ورفع السبطانة بزاوية ١٠ درجة وثبَّت مقيدها في محله، جلس عوديشو على كرسي منظم المعلومات الخاصة بالرأس الحاسب وجهاز طبلة المدى، تأكد من عملها بصورة صحيحة، أما أنا فقد وقفت بجانب مخزن العتاد للمالئة الطوعية اليمنى وعيني لا تقاومان إغراء النظر إلى النهر وسر الغوص فيه، رفع حميد كليب نظره إلى السدادة، تأملها وتأكد من وضوح رؤية تقاطعها الأفقي والعمودي وقال:

- لم اسمع ولو مرة واحدة أن يبدأ آمر الكتيبة هذا ذو المؤخرة الكبيرة بكلمة "صباح الخير"، هلا قلتم لي أهي حرام في العسكرية؟

ابتسمنا معًا وقال له عوديشو بمرح:

- صباح الخيرات يا ابن كليب..

يا لجمال الصباح في حديثة!..

الورقة السابعة

صفير الريح يسافر في كل الاتجاهات، تخترق موجات البرد السافر أعماق أعماقي، فينتفض جسمي الخامل الهزيل، تيارات هواء بارد تغسل جسدي.. قررت أن افعل ما يحلو لي وأن ألعن شرف العسكرية وقيودها القبيحة، بمحض إرادتي طيَّرت بيريتي التي كانت تقيدني في الهواء، خلعت معطفي العسكري، وفتحت أزرار قميصي، بدأتُ المشي في الأمتار العشر الوحيدة التي يحق لي الحركة فيها، اجتزتها، واصلت المسير كما شاء القلب.. تطلع إليَّ الجنود الآخرون بتعجب.. بذهول.. بشذوذ:

- ماذا به؟

- لماذا يفعل ذلك والبرد على أشده؟

- يا لغضب(رع) مصلح النذل الذي ينتظره! من يعلم كم يومًا سيلقي به في الحبس؟

- جبلي مجنون، حتمًا سيواجه بلاءً..

البرد يهرب من الخوف، مجموعة الكلاب تلك كانت تركض بحُريَّة، بلا خوف، وسعادة لا مثيل لها، كانت تُطارد بعضها البعض بمرح، كانت الكلاب تتمرَّغ في الوحل بشكل تلقائي ممتع، كم أودُّ لو كنت

أنا أيضًا حرًا مثل هذه الكلاب! أروح وأعود كما أشاء! ألعب، أمرح، أفرح، أرفع يديَّ وأمدَّهما يمينًا، يسارًا، أركل كل حجرة تعترض طريقي، آآآآآه أيتها الكلاب معذرة، فأنا أحسدكم على حريتكم! آآآآآه أيتها الكلاب الحرة كل الحرية، ليتني كنتُ كلبًا حرًا مثلكم! قريبًا، قريبًا جدًا سأقصد أنا أيضًا نبع الحرية! أشكركم أيتها الكلاب، لقد أعطيتموني درسًا لا يُنسى، أعلم أن كل هؤلاء الجنود يتمنون أن يكونوا أحرارًا مثلكم.

الورقة الثامنة

أتعرفين يا گولستان كم هي طويلة الليالي بدونك؟ كم هي باهتة، مؤلمة؟ كم هي ظالمة، مظلمة بدونك؟ ما فائدة الليالي إذا لم تبتسمي فيها كالقمر؟ ما جدوى قصائدي إن لم تنصف جمال عينيكِ المفعمتين بالأمل والندى؟ بل من أنا؟ ما قيمتي أنا؟ إن لم تكوني أنت يا زهرتي الزاهية؟.

الورقة التاسعة

صدقني يا أستاذي العزيز حينما قالوا لي:

- لم يبقَ في مكانه.

لم أصدقهم قط، كنتُ أظن أنهم يمزحون معي، وفي أول فرصة سنحت لي، قصدت موطنك الثلجي، مثل كل مرَّة أغمضت عيني، كي لا أرى سحناتهم وهم حفاة وجحوشهم على طرفي الشارع، في مدخل مضيق الجبل الأبيض، صرخ زينفون في أذني:

- يا للحيف، أن تكونوا أحفادًا لأولئك الشجعان، ماذا يفعل هؤلاء الغرباء في أراضيكم؟ أجدادكم يموتون ثانية من قهركم.

أستاذي العزيز، حينما فتحتُ عينيَّ، تفلت الشجرات الثلاث في تركشا في وجهي: كيف تتركوننا للأغراب؟ متى ستعودون ثانية؟ أسرعوا بالعودة.. أستاذي، تحت ظل هذه الأشجار قد حلمنا أحلامًا وردية، لِمَ هي ميتة الآن؟ قلتُ لتلك الصخرة القابعة في بطن المضيق، التي كانت تتفرَّسني بقسوة:

- أتمنى أن تكون أقاويلهم كاذبة أيتها الصخرة.

ظلَّت أشجار الكاژ خلفنا، وصلنا الميدان الذي كان يعرف باسمك، لم يكن تمثالك في مكانه، رأيت تلك القاعدة المهترأة فقط التي لم تكن تناسب مقامك الشامخ يا أستاذي.. سألت حمو مرمم الأحذية:

- ماذا حلَّ بخاني؟ أين هو؟

ضحك بسخرية واضحة، فتح فاه وأجابني:

- كان المسكين قد توسخ كثيرًا، ذهب ليغتسل في الخابور، ويا للأسف فقد غرق.. لم يكن يجيد السباحة!

لكن نوئيل الحلاق، بعد أن نفض المنشفة من الشعيرات قال:

- لقد ضاق ذرعًا بكم وغضب منكم، ذهب ولن يعود، على مرأى منكم كسروا يده قبل ثلاث سنين ولم ينطق أحدكم البتة، لم تصدر الوديان والسهول صوتًا.. أليس من حقه أن يرتحل ويختفي إلى الأبد، كان قد بقى لوحده بلا أهل وأصحاب..

أستاذي.. أنت تعرف "يحيى" جيدًا، يحيى الرجل الذي يطلق عليه أهل المدينة لقب المجنون، الذي لا يملُ الكلام مع الخابورو جسر دلال والموج والجبل والشمس، هو أيضًا كان يصغي لحديثنا، هز رأسه وقال:

- لا..لا لا تصدقهم، أبدًا لا تصدقهم، بروح شجرة الجنار يكذبون عليك، قسمًا بشاربك يا فتى، في ليلة قذرة، حالكة الظلام، جاء جنيّ ثقيل الوزن، كثير الصراخ والعويل، ذو عشرة أفواه، والتهم

أستاذك بأسنانه الحديدية الحادة والمتباعدة عن بعضها وابتلعه ومضى، إن لم تتماسكوا وتتَّحدوا سيبتلعونكم كلكم، سيلعنون أجدادكم، سيبيدونكم، هاهاها اغربي أيتها الشمس.. هاهاها تعال أيها الجبل، هاهاها اذهبي أيتها الشمس، هاهاهاهاها تعال يا جبل، قل لي يا أستاذي:

- لماذا الموت هو سيد هذا العصر؟

الورقة العاشرة

منذ فترة ليست قليلة، كانت العصافير قد بدأت حياتها المعتادة، فزقزقتها كانت تملأ الجو وأغصان الأشجار والفراغات بين الأشواك الشامخة التي كانت تحتل الأرض اليابسة، الأشواك الصفراء بلون أحزان هذا الصيف الذي بدا مبكرًا وقاحلاً مرعبًا، تعلقت عيناك به.

في رأس الزقاق برأسه الأملس وقميصه الذي فقد لونه، وحذائه البلاستيكي، كان يتقدم بثقة المرأتين والرجل العجوز بلحيته البيضاء الذي كان بالكاد يجر قدميه خلفه، صوب ظل شجرة التوت، وقف في المحل الذي كانت تقف فيه السيارات، بحقد وغضب كان ينظر إلى أولئك الرجال وأشباه الرجال المسلحين، هدأت قسمات وجهه، ابتسم حينما وقعت عيناه على جسد المدفأة القديمة قرب ذلك البيت المتهدم حديثًا، أراد أن يحمل جسد المدفأة، حاول مرة، مرتين لكنه لم يستطع، تناول حجرة بحجم كفه مرتين ورفعها بكلتا يديه ورمى بها المدفأة طعج جانبًا منها، نظر إليها مليا والتفت إلى والدته التي كانت تبدو كالعود الأصفر الهزيل وهي تنظر إليه بحنان طاغ، قال لها:

- أماه لِمَ لَمْ تُثقب هذه المدفأة مثل مدفأتنا حينما أطلق عليها الرجل المسلح، الذي كان يبدو كالجاموس طلقة؟.

لم تجبه والدته، لكنها أشارت له بيدها:

- تعال.. تعال يا ولدي العزيز يا سالار.

لكن الرجل المسن الذي كان ينظر إلى جموع مسلحة، هز رأسه وخاطبها:

- اتركيه.. دعيه يلعب..

- طاااااق

هذا الصوت سد أذني الطفل الذي التفت إلى ناحية الصوت، رأى عصفورًا مضرجًا بدمائه، سمع صوتًا غليظا ينتشر حوله:

- قولوا إني لستُ راميًا جيدًا، انظروا كيف قتلته بطلقة واحدة فقط.

- بل أفضل رامٍ أنت يا رجل! هكذا أجابه آخر..

لكن الصبي أجابه من مكانه:

- بل كلب ابن كلب أنت.

من بعيد أتى صوت سيارة، أخذ سالار الكيس من جده، وكانت عيناه تبتسمان لنور الشمس دون شعور منه، فتح باب السيارة العتيقة وصعد إليها، وأدار رقبته لأولئك الذين كانوا كالذباب منتشرين هناك..

الورقة الحادية عشر

"الفراشة"

نعم هذه الفراشة الناعسة

الملونة الرقيقة

لا تستطيع أن تُكمل دورتها

حول روض الزهور

ومثل رعب الأسماك في ليال يحوم الظلام

حول سطح النهر وينام فيه

تهرب إلى الأعماق

لتنام بسلام

نعم إنها تهرب.. تطير

منى ومن زيي المهترئ الذي أتباهى به

وتتركني وحدي

وأنا عبد الله الجاهل البسيط الهزيل

أقف في حضرة الوردة بألم

اسألها: لماذا؟

قبل أن تبدأ الكلام

تسقط وريقة وتذرف عليها الندى

بضيق وارتباك باد تقول:

يقولون إنك لا تستحق الحياة

أنك تأكل لحمك بنفسك

بظمأ تأكله

لماذا تأكله؟

كيف تأكله؟

* * *

حينما أردت أن أنظر لسيمائي

التي تهرب منها الفراشة

في المرآة

تكسرت من الغضب المرآة

وتفتَّتت قطعًا كالحصاة

وحفرت في وجهي الجروح

ولم أرَ نفسي

لكنني رأيتُ قطرات دمي بلون براز الذباب..!

الورقة الثانية عشر

ما كل هذا الدلال؟

ما تلك الأصابع المسافرة بين ثنايا شعرك؟ أكاد اسمع صوت أمواج شعرك العنقودي: أنظر كم فاتنة أنا! يا وردة السبت، أكنت تدركين أن المجلة التي كانت قد غدت كمروحة في يدك وتنثر الهواء في وجهك في عز الظهيرة، كم كانت تزيدك ألقًا! بالله لقد لعنت رب القلب، وأفقدتيه توازنه، وددتُ أن أقترب منك أكثر، أن أقول لك بلغة الشفاه: ما الذي بينك وبين الكلمة؟

لكن رؤيتك كانت دنيا بحالها، لذا آثرت الصمت وجلست في المقعد الذي خلفك، معذرة بلا وعي كنت أسافر في عالم شعرك المصفف بروعة قاتلة إلى عالم مليء بالأفراح والأحلام والندى، إياك أن تقولي لا، أنت أيضًا كنت تنظرين إلي بطرف عينك، كنت تلتفتين متعمدة بحجة تعديل شعرك المتناثر، وحق ديك حواء كنت قد التهبت أكثر مني، كنت تتمنين لو أننا الآن لوحدنا فوق قمة جبل فرح بجمال أشجار ربيعه، أن نتكلم مع بعض بلغة العيون، بعد أن كنا نكسر حاجز الخجل، ونُشكّل باقة ورد بألوانها الخضراء، الحمراء، الصفراء، البنفسجي، وأن تتعانق أيدينا، أأأأأأه كم بارقة

كانت ستبدو عيناك! كم نبعًا كان سينبع منهما! كم طربًا كان سيرقص قلبك! أمَّا أنا فبالمرة كنت سأسكر، ألف الحقول منتشيًا، كنت سأغدو زين الشباب.

أيتها الجميلة، إذا ما التقينا ثانية في الزقاق، في الشارع، في السوق، في أي مكان، وطار قلبي من صدري، بشوق احتضنك، لا تخجلي، احتضنيه أيضًا، وصفي بهاء الحياة على شفتيك، حينها سترين كم ستكونين أحلى وأجمل من يوم السبت الذي أسكرتني فيه بجمالك..

إن لم تكن جميلات مثلك، كيف ستعيش عيوننا؟ شكرًا لجمالك الذي جدَّد حياتي ثانية، شكرًا يا سيدة الكلمة..

الورقة الثالثة عشر

بعد الحادية عشر ليلاً كانت تصعد فوق، تقصد غرفتها.. تدع الباب مفتوحًا مسافة ثلاثة أشبار، كانت تُشعل الضوء وتطفؤه، بهدوء تام كانت مسرحية كل ليلة تبدأ، تنزع غطاء الرأس، تفتح أزرار ثوبها، تبرز ثديًا واحدًا من صدرها، كانت تقترب من الباب أكثر، تتمسك فيه، تفتحه أكثر، بهدوء كانت ترفع طرف الثوب، سيقانها التي لم ترَ الشمس، كانت تلتمع في ضوء الغرفة، كانت تمد يدها لصدرها، تلعب بنهدين ضامئين لأصابع ذكرية..

أحيانًا كانت تُطفئ الضوء، بعد فترة وجيزة تُشعله ثانية، كانت تبدو عارية تمامًا، بظمأ تطحن نفسها في أرضية الغرفة، تهز النهدين، تدور حول نفسها، ترينا ظهرها، تنثر شعرها الأكثر سوادًا من ليل بلا نجوم حول ثدييها، تلتصق بالحائط، تعض شفتيها، تخرج لسانها من فمها، حتى قلب الضوء الذي كانت ضائعة فيه، كان يشتهيها..

منذ زمن كان قلب رئيس العرفاء عبد ضحوى قد مات فيها:

تلك الكلبة لن تشبع أبدًا، حتّى سبطانة هذا المدفع العملاق أيضًا لن يريحها، كفى، كفى، لقد جعلتينا جلدًا وعظامًا فقط..

في أغلب الليالي كان هذا عملها، كل صباح مع الفطور كان الجنود يروون حكاية الليلة الفائتة، وأحيانًا يضيفون إليها قصصًا خيالية.

الورقة الرابعة عشر

عندما كان صديقنا عدنان يقول:

"الحياة ليل.. ليل مظلم.. ليلٌ بعشرة أفواه".

كنا نضحك منه، كنا نضحك عليه، لكنني الآن حيث استنشق رائحة البارود ليل نهار وقريب من أمواج الموت الواضحة، لا أستطيع إلا أن أكرر مع نفسي جملته:

- الحياة ليل.. ليل مظلم.. ليل بعشرة أفواه.

عدنان ما الذي لنا هنا؟

لم سنكون وقود هذه النار؟

سأحطِّم جدار الخوف هذا، سأركل قلقي بقدمي، واتخذ قراري، سأقصد بيت النرجس، قتلني الشوق إلى البيبون، الصوت الصارخ من أعماق الجبل: تعال يا فتى، صوت حلو، يا ثلج الجبل الأبيض، يا قضيتي البيضاء، قريبًا سآتي، إني أتحين الفرصة، حتما سأ...

*** * ***

هذا صوت ما! نعم.

"ته ب، ره ب.. ته ب، ره ب.."

- أحقًا اسمع وقع خطوات؟ إنها خطواته نعم، نعم هي خطواته، وأخيرًا جاء، جاء كنت متيقنة من مجيئه..

- تَق.. تَق!

- الباب مفتوح يا دلشاد، فقط ادفعه ادخل يا دلشادي، فأنا بانتظارك، اعذرني من الفرح لا أستطيع الوقوف على قدمي..

- بسم الله.. بسم الله الرحمن الرحيم.. مابك هكذا متأنقة يا ابنتي؟ وما الذي أصحاك لحد الآن؟! ما بدلة العرس هذه التي ترتدينها؟ خيرًا يا گولستان ماذا بكِ؟

- عمتي أنا بانتظار دلشاد.

- يا ابنتي لماذا لا تعودين إلى رشدك؟ انسي هذا الموضوع وانتبهي لنفسك، لم يبق فيك روح.

- لا..لا أرجوك.. دلشاد كما هو، حي.. ويزورني ونتحدث كثيرًا، اليوم أيضًا تكلَّم معي، وقال لي:

- سآتي الليلة، انتظريني، أنا على يقين أنه سيأتي، بالله عليك يا عمتي ألا ينبئك قلبك بأنه سيأتي؟

- ....

- سيأتي يا عمتي.. سيأتي أليس كذلك؟ سنأخذه بالأحضان كلنا، أنا وأنت والأولاد والباب والحائط، نعم، كلانا سنحتضنه، هو أيضًا مثلنا مشتاق، سيأتي أليس كذلك يا عمتي سيأتي؟

"يا للحيف، أن تغدو هكذا وهي في ربيع العمر"

- اذكري اسم الله وارحمي نفسك يا ابنتي ونامي قليلاً فلم يبقَ للصباح إلا القليل، من يراكِ بهذا الحال ماذا سيقول؟

- إذا أنا لم أتأنق لدلشادي هكذا يا عمتي، لمن أتأنق إذن!

- خذي ولدكِ.. لقد استيقظ من النوم وهو يناديكِ.. نامي قليلاً من أجل هذا الطفل، تُصبحين على خير..

- مع السلامة يا عمتي، تُصبحين على خير..

لا أعلم لِمَ لا يصدقون أنه سيأتي! هل كذب علينا يومًا؟ إن لم يكن قلبي يعرفه حقًا، لكنت أغدو في شك منه أيضًا، إنه أول الفجر، ها هي أوشحة الفجر تداهم الظلام يا دلشاد، متى ستأتي إذن؟ تعال، لا أريد أن يُطِّلُ الصباح وأنت لست بجانبي.

- ماء.. أريدُ ماءً يا أماه.

- حسنًا يا ولدي.

أين ذلك القدح؟ لأتأكد منه على دكة الشباك، هذا هو، خذ أشرب يا ولدي..

- أمّاه.

- نعم يا ولدي.

- أبي يتحدث إليك؟

- أجل يا ولدي.

- إذن لماذا لا يتكلم معي؟

- سيتكلم معك أيضًا.

- أنا في شوق إليه.. ألن يأتي يا أماه؟

- بلى، بلى سيأتي.

- فليأتِ إذن.

- إن نمتَ الآن، سيأتي.

- لننم معًا إذن حتى يأتي أبي.

- وكيف سيوافيني النوم يا فلذة كبدي ؟!

- أنا أيضًا لن أنام.

- تعال يا ولدي وتمدد بجانبي.. نم يا قرة عيني، نم ليأتِ أبوك.

* * *

يا گولستان..

قسَمًا بنوار اللوز الباسم لتوه، كنت سآتي، قسمًا بالتفاح النشوان في أرمشت، كنت سآتي، لكن الأمر ينص على أن تقترب قواتنا الآن من مشارف المدن، سنبدأ دبكة كبيرة، كبيرة جدًا.. اعذريني يا زهرتي، فلم يبق إلا القليل وسترين نفسك مُعززة في بريق عيوني، حبيبتي البيشمركة بدأوا بالحركة، عليَّ أن لا أتأخر عنهم، إلى اللقاء، إلى لقاء قريب جدًا.. انتظريني ها أنا قادم إليكم..

- دلشاد.. دلشاد.. دلشاااد..

يا إلهي كيف غفوتُ قبل قليل؟ كيف نمتُ قليلاً.

آهٍ يا دلشادي ستأتي، قريبًا ستأتي، مع الأصدقاء ستأتي، مع الدبكة ستأتي، ستأتي مع الفرح الباسم للكل، تعال، تعال يا دلشادي، فأنا بانتظارك، بالزغاريد واللهفة، كنت اعلم أن النرجس والبيبون والسوسن قد جذبوك نحوهم، لكني ما كنت قادرة على قول ذلك، كانوا سيتهموني بالجنون، آهٍ يا لجنوني يا دلشاد، أيُ بشرى سارة هي مجيئكم يا دلشادي، كم رائعة ملابسك الخاكية الكردية يا دلشادي، يبدو أن الصباح قد أطلَّ، لأفتح النافذة، يا لروعةِ زقزقة العصافير، هي أيضًا تزف البشرى لأوراق شجرة التين، بسرعة ارتفعت الشمس ثلاثة أشبار، لأنهض وأغير ملابسي وأغتسل وأزف البشرى لعمتي، يا للسعادة التي ستغزو وجهها.. يا الله.

صيف ١٩٨٧ موصل

المؤلف في سطور

§ يكتب الرواية، القصة القصيرة، الشعر، ويمارس الترجمة.

§ رئيس اتحاد أدباء الكرد - فرع دهوك - إقليم كوردستان العراق.

§ صاحب امتياز مجلة پەيڤ (الكلمة) مجلة اتحاد أدباء الكرد– دهوك

§ يكتب باللغتين الكردية والعربية.

§ الإصدارات :

- قصائد تحبو : شعر . أربيل ١٩٩٣

ترجمها إلى العربية بعنوان (دمي الذي سيضحك) ١٩٩٥.

- خبز مُحلى بالسكر : قصص قصيرة . دار نشر ابيك / السويد،

ترجمها إلى العربية بعنوان (ليلة المطر) دهوك ١٩٩٧.

- گولستان والليل : رواية قصيرة .

الطبعة الأولى : بالأحرف اللاتينية الكردية، ١٩٩٦.

الطبعة الثانية : بالأحرف العربية الكردية، ٢٠٠٠.

الطبعة الثالثة : بالأحرف اللاتينية الكردية، ٢٠٠٧.

الطبعة الرابعة : بالأحرف العربية

مؤسسة شمس للنشر والإعلام ، القاهرة ٢٠١١م

- قصائد من بلاد النرجس : دهوك ، ١٩٩٩.

- **قصص من بلاد النرجس :**

الطبعة الأولى : دهوك ، ٢٠٠٢.

الطبعة الثانية : دهوك ، ٢٠٠٥.

- **تلك السيدة : قصائد .**

الطبعة الأولى : منشورات اتحاد الأدباء الكرد، دهوك، شباط٢٠١٠.

الطبعة الثانية : بالحرف اللاتيني. صيف ٢٠١٠.

§ **البريد الإلكتروني :** hsslevani@yahoo.com

lawiko@hotmail.com

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ العربي، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على نشرها وإبرازها.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية في العديد من الدول.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.
- إعادة نشر التراث المعرفي العربي ذي الإفادة في عصرنا، وتحقيقه وتدقيقه.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 - (+2) 0188890065

شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net